

آدَابُ
السُّرِّ الْبَصْرِيِّ
وَزُهْدُهُ وَمَوَاعِظُهُ

تأليف
الإمام جمال الدين أبي الفرج ابن الجوزي
رحمة الله تعالى

تحقيق
سليمان الحرشي

دار الصلوة

الطبعة الأولى
١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م



دار الصَّيِّقُ للطباعة والنشر والتوزيع
سورية - دمشق - ص.ب. ٢٤٢٠٧ - هاتف: ٤٤٤٧٠٠١ - فاكس: ٤٤٤٧٠١١
ببروت - لبنان - ص.ب.: ١٤/٥١٨٠

آداب
السيرة البصرية
ورزقها ومواعظها

تأليف
الإمام جمال الدين أبي الفرج ابن الجوزي

رحمة الله تعالى

تحقيق
سليمان الحارثي

كتاب الصلاة



أبو سلوم المعتزلي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله نعمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا
وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له،
وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له في ربوبيته وألوهيته، وأسمائه
وصفاته، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، وصفيه وخليله، صلى الله عليه
وهلى آله وصحبه، ومن اهتدى بهديه، وسار على نهجه إلى يوم الدين.

الحمد لله الذي جعل في كل زمان فترة من الرسل بقايا من أهل العلم
يدهون من ضل إلى الهدى، ويصبرون منهم على الأذى، يُخَيِّرُونَ
بِكِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى الْمَوْتَى، وَيُبَصِّرُونَ بِنُورِ اللَّهِ أَهْلَ الْعَمَى، فكم من قتيل
لإلهيس قد أحيوه! وكم من ضالٍّ تائبٍ قد هدَّوه! فما أحسن أثرهم على
الناس! وما أقبح أثر الناس عليهم! ينفون عن كتاب الله تعالى تحريف
الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين، اختارهم الله بفضله،
وأخَّرَ من شاء بعدله، اختص من أهل الإيمان من أحب فعلمهم الكتاب
والحكمة، وسلك بهم صراطه المستقيم.

إن أمتنا اليوم تمر بفترة عصيبة مظلمة، من خلال صراعات فكرية
مذهبية، وسلوكية، نعيشها مسترقين النظر، مطرقين خجولين من ماضٍ
حافلٍ برجالٍ نعتز بذكرهم، أئمة في العلم والتقوى، والزهد والورع،

والجهاد والبطولة، ما غيروا ولا بدلوا، بل آمنوا واتبعوا واستقاموا، قال الله تعالى فيهم: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَّن قَضَىٰ نَجْبَتُهُ وَمِنْهُمْ مَّن يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾ (١).

سلفنا الصالح من الصحابة والتابعين وتابعيهم إلى يوم الدين هم القدوة والمنهج: عبد الله بن عمر - رضي الله عنه - الصحابي الجليل بين منهج الاتباع، ويحذر من الميل والبعد عنه؛ فيقول فيما يرويه ابن أبي شيبة في «مصنفه»: إني ألفت أصحابي على أمر، وإني إن خالفتهم خشيت ألا ألقى بهم.

واليوم ما أخرجنا إلى العالم القدوة أمثال الحسن البصري - رحمه الله - تعالى - فالعج كثير، والحج قليل.
يقول الشاعر:

أيها العالمُ إياكَ الزلُّ واحذر الهفوةَ فالخطبُ جَلُّ
هَفْوَةُ الْعَالِمِ مُسْتَعْظَمَةٌ إِنْ هَفَا أَصْبَحَ فِي الْخَلْقِ مَثَلُ
لَا تَقُلْ يَسُّرَ عِلْمِي زَلَّتِي بَلْ بِهَا يَحْصُلُ فِي الْعِلْمِ الْخَلَلُ

الحسن البصري علم من أعلام التابعين، اشتهر واستفاضت شهرته علماً وأدباً وزهداً وورعاً، فكان القدوة والمثل لعلماء الأمة من بعده.

وكان أهل البصرة إذا قيل لهم: من أعلم أهلها، ومن أروعهم، ومن أزهدهم، ومن أجملهم؟ بدؤوا به، وثنوا بغيره.

جمع سيرته الإمام جمال الدين أبو الفرج بن الجوزي - رحمه الله تعالى - وسماها: آداب الحسن بن أبي الحسن البصري وزهده ومواعظه.

(١) سورة الأحزاب: ٢٣.

وأخيراً أشكر وأدعو لأخي الأستاذ إبراهيم باجس الذي دفعني وحثني
لإخراجها.

أسأل الله العظيم أن يتقبل هذا العمل بقبول حسن، وأن يجعله خالصاً
لوجهه الكريم، فهو حسبي ونعم الوكيل.

وصلّى الله وسلّم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

وكتبه
سليمان بن مسامر الحرشي
دمشق
جمادى الآخرة - ١٤٢٥ هـ

عملي في الكتاب

- كان عملي في هذا الكتاب بعد الاعتماد على الله تعالى أولاً وآخرًا:
- ١- أن اعتمدت على مصورة النسخة الخطية المحفوظة في «آيا صوفيا» بتركيا رقم الحفظ: (١٦٤٢)، والتي أوقفها ابن السلطان الغازي محمود خان، والتي جاء في آخرها:

«وكان الفراغ من هذا الكتاب بعون الملك المعين الوهاب . . . يوم الاثنين الواضح البيان ثاني عشر شهر الله المعظم رمضان . . . من شهر سنة ثمانين وتسع مئة من الهجرة الشريفة النبوية»^(١).

 - ٢- قمت بمقابلتها على النسخة المطبوعة عام (١٣٥٠هـ) تحت عنوان: سلسلة الرسائل النادرة التي قدم لها الأستاذ / حسن السندوبي . وهذه النسخة قد عابها سقط قرابة أربعين ورقة من أماكن مختلفة، مع تصحيحات وتصرف في بعض النصوص .
 - ٣- قمت بتوزيع النص توزيعاً مناسباً، مع مراعاة علامات الترقيم، وبداية الفقرات .
 - ٤- خرّجت الآيات القرآنية .

(١) أرسلها إلى أخي الفاضل الدكتور إبراهيم السقا - جزاه الله خيراً - .

٥- قمت بعزو الأحاديث إلى مظانها في كتب السنة، إلا القليل الذي
لم أشر على مظانه.

٦- ترجمت لأكثر الأعلام ترجمة موجزة.

٧- شرحت الغريب، وعلقت على بعض المواطن التي تحتاج زيادة

إلى

٨- قمت بترجمة موجزة لمصنفها الإمام «ابن الجوزي».

٩- وختمتها بفهرسة لما جاء في فصولها.

والله أسأل أن ينفعني وينفع بها، وأن يرزقنا صدق النية والقصد،

والله على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.

* * *

أبو الفرج بن الجوزي^(١)

الإمام العلامة، الحافظ المفسر، عالم العراق، وواعظ الآفاق، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد بن علي بن عبيد الله بن عبد الله بن حمّادي بن أحمد بن محمد بن جعفر بن عبد الله بن القاسم بن النضر بن القاسم بن محمد بن عبد الله بن الفقيه عبد الرحمن ابن الفقيه القاسم بن محمد ابن خليفة رسول الله - ﷺ - أبي بكر الصديق القرشي التيمي البكري البغدادي الحنبلي، صاحب التصانيف العديدة في فنون العلم.

وُلد سنة تسع أو عشرٍ وخمس مئة، عُرف جدّه بالجوزي؛ لجوزة كانت في دارهم بواسطة، لم يكن بواسطة جوزة سواها. تُوفي أبوه وله ثلاثة أعوام، فربته عمته.

(١) انظر: «البداية والنهاية» لابن كثير (٢٨/١٣)، «تذكرة الحفاظ» للذهبي (١٣٤٢/٤)، «الذيل على طبقات الحنابلة» (٣٩٩/١)، و«سير أعلام النبلاء» للذهبي (٣٦٥/٢١)، «شذرات الذهب» (٣٢٩/٤)، «طبقات المفسرين» للسيوطي (١٧)، «طبقات المفسرين» للداودي (٢٧٠/١)، «العبر» (١١٨/٣)، و«مرآة الجنان» لليافعي (٤٨٩/٣)، «مفتاح السعادة» (٢٤٥/١)، «الكامل» لابن الأثير (١٧/١٢)، «النجوم الزاهرة» لابن تغري بردي (١٧٤/٦)، «دول الإسلام» للذهبي: (١٠٦/٢)، طبعة إدارة إحياء التراث الإسلامي بدولة قطر، «طبقات الحفاظ» للسيوطي (ص ٤٨٠)، «وفيات الأعيان» لابن خلكان: (٢٧٩/١).

وكان أول سماعه سنة ست عشرة، وسمع بعدها من خلق كثير عدتهم سبعة وثمانون نفساً.

وانتفع في الحديث بملازمة ابن ناصر، وفي القرآن والأدب بسبط الخياط، وابن الجواليقي.

وكان بحرّاً في التفسير، علامة في السير والتاريخ، موصوفاً بحسن الحديث، فقيهاً، عالماً بالإجماع والاختلاف، وكان ذا حظّ عظيم، وصيت بعيد في الوعظ، قد طاوعته اللغة والبيان، يحضر مجلسه الملوك والوزراء وبعض الخلفاء والأئمة الكبار، لا يكاد مجلسه ينقص عن ألوف كثيرة.

قال سبطه أبو المظفر في «مرآة الزمان»:

«سمعت جدي على المنبر يقول: بأصبعي هاتين كتبت ألفي مجلدة، وتاب على يديّ مئة ألف، وأسلم على يديّ عشرون ألفاً، وكان يختم في الأسبوع»^(١).

ثم قال: ومجموع تصانيفه مئتان واثنان وخمسون كتاباً، منها: «المغني في علوم القرآن»، اختصره في كتاب «زاد المسير»، «تذكرة الأريب» في اللغة، «التيسير في التفسير»، «فنون الأفتان في علوم القرآن»، «ورد الأغصان في معاني القرآن»، «النبعة في القراءات السبعة»، «الإشارة في القراءات المختارة»، «تذكرة المنتبه في عيون المشتبه»، «الفوائد المنتقاة»، «سلوة الأحران»، «النقاب في الألقاب»، «آفة المحدثين»، «البدائع الدالة على وجود الصانع»، «مسبوك الذهب في الفقه»، «البلغة

(١) «مرآة الزمان»: (٤٨٢/٨).

في الفقه»، «التلخيص في الفقه»، «لقطة العجلان»، «حال الحلاج»،
«عطف الأمراء على العلماء»، «إعلام الأحياء بأغلاط الإحياء»، «الحث
على العلم»، «الفتة الكبد»، «الوجوه والنظائر»، «جامع المسانيد»،
«تلبس إبليس»، «صيد الخاطر»، «التحقيق في مسائل الخلاف»،
«الأذكياء»، «منهاج القاصدين»، «الوفا بفضائل المصطفى»، «كتاب
الموضوعات»، «العلل المتناهية في الأحاديث الواهية».

وقد ألف في مناقب كثير من الأئمة؛ كأبي بكر، وعمر، وعلي،
وإبراهيم بن أدهم، وعمر بن عبد العزيز، ومنها: مناقب الحسن البصري
التي بين أيدينا، وغيرها كثير.

قال سبطه: ومجموع تصانيفه مئتان ونيّف وخمسون كتاباً، وكذا وجد
بخطه قبل موته^(١).

قال الموفق عبد اللطيف: كان ابن الجوزي لطيف الصورة، حلو
الشمائل، رخيم النعمة، موزون الحركات والنغمات، لذيد المفاكهة،
يحضر مجلسه مئة ألف أو يزيدون، لا يضيع في زمانه شيئاً، يكتب في
اليوم أربعة كراريس، وله في كل مشاركة^(٢).

قال الذهبي في «التذكرة»:

«له وهم كثير في تأليفه، يدخل عليه الداخل من العجلة والتحويل إلى
صنف آخر».

قد يلاحظ المتتبع لكتبه، وخاصة مصنفاته في الأحاديث الموضوعية

(١) «سير أعلام النبلاء»: (١٣/٣٧٠).

(٢) «تذكرة الحفاظ»: (٤/١٣٤٦).

والضعيفة أنه ربما يدرج أحاديث كثيرة في هذا الباب، وهي صحيحة أو حسنة، فليتنبه لذلك طلاب العلم.

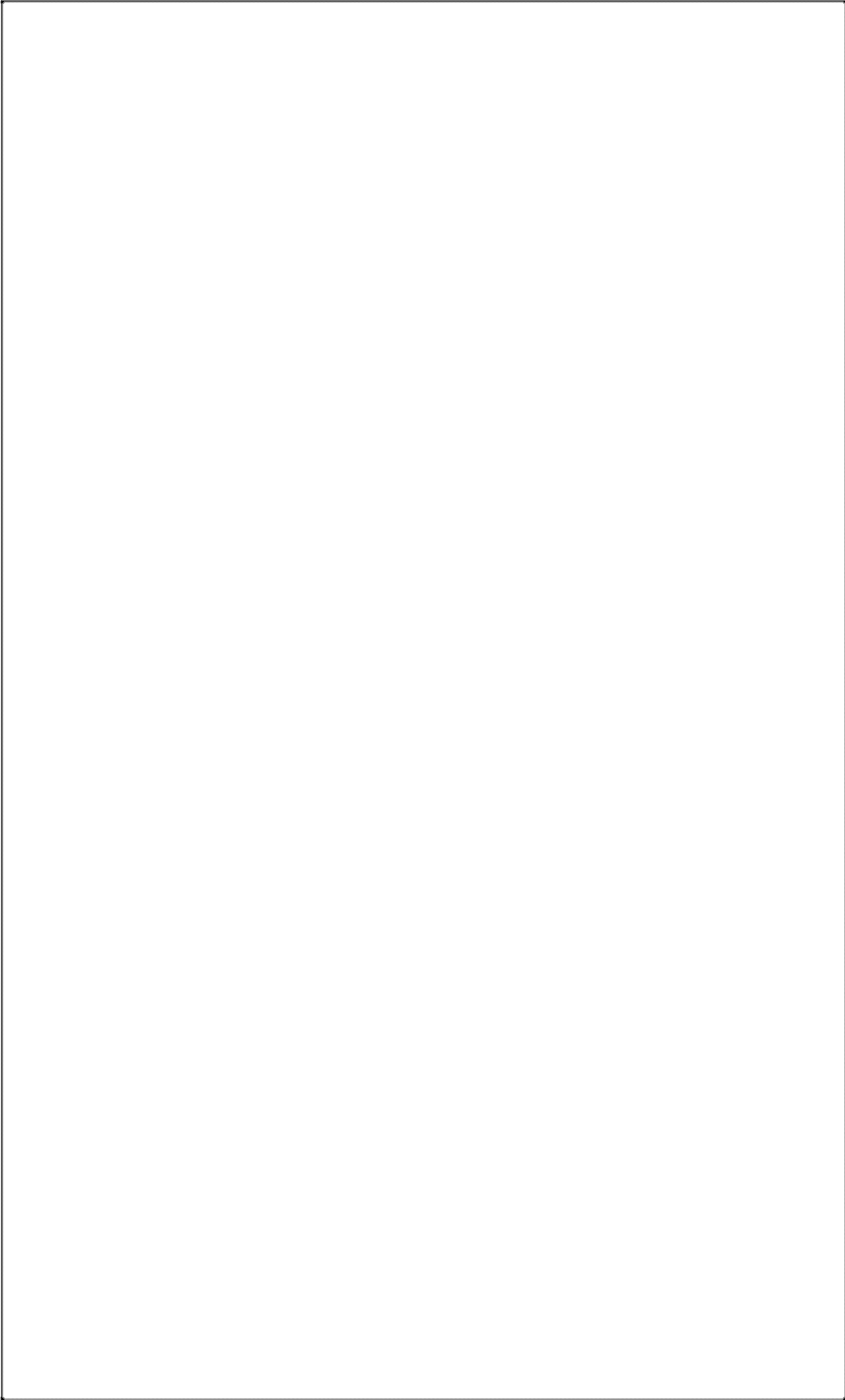
قال الذهبي في «التاريخ الكبير»:

«لا يوصف ابن الجوزي بالحفظ عندنا باعتبار الصنعة، بل باعتبار كثرة اطلاعه وجمعه».

وكانت وفاته ليلة الجمعة الثالث عشر من شهر رمضان سنة سبع وتسعين وخمس مئة من الهجرة - رحمه الله وأسكنه فسيح جناته -.



صور المخطوطات



إليه جزئاً على الموضع مرادك وقضاً: لو احييت حياك وابته
 استحيين وهو حسي وبعم الوركين وقد رثمت ما جتمعت
 بين ذلك على ثمانية فصول الفصل الاول
 في ذكر منقده وصيقه: قوله واقباله الفصل الثاني
 فيما روي عنه من الادراك كابرع الاغلا في الفصل الثالث
 الفاكه فيما ورد من الحكيم والمواظع على جهة
 البلاء في الايجاز الفصل الرابع في ذكر الادب والتمجيد
 غير الشائق في الفصل الخامس فيما روي عنه من الادب
 القرائن من الحكيم والمواظع الفصل السادس فيما ورد
 على جهة الاستغفار والدعاء ونهي عن الضمير والارباب
 الفصل السابع في كتابات الخلفاء ومما ندمت الاجراء
 الفصل الثامن في الروي عنه من المواظع والحكمون
 سائر الاشياء الفصل التاسع في ذكر منقده وصيقه
 اسوارها واغلايه: وهو العكس من الحسي العبري: كان يكون
 في قول الاغلايه من المواظع والادب

صورة اللوحة الاولى من المخطوط



برافق الرحمن الرحيم
 اعديه اهل مجد وشيخه وشيخه لغيره وشيخه
 على ثمانية. الاول بلا ابتداء. الاخر بلا ابتداء. الذي ليس
 كشيء من وهو الصبح البشير. واشهد ان لا اله الا الله
 فعند لا شريك له. وان محمداً صلى الله عليه وسلم عبداً
 ورسولاً ارسل بالهدى ودين الحق ليطهر على الذين كلده
 وتوكلوا بالحق ان ابراهيم لم يفتخر اذ امر الله عز وجل
 فذبح ذبائح قال انك انت الله اعلم. فذبح ذبائح عليه.
 من جمع ما هو مشرف في الكتاب من آيات الحسين بن علي بن الحسين
 البشير في نسخة الله عليه ورضي عنه ورواه غيره في نسخة من ذلك
 ذلك في نسخة من نسخة الحسين بن علي بن الحسين بن علي بن الحسين

الدنيا فلهذين فيها نيتنا، ولا جد ذنوبنا، حسن النية لا تظلمه
 طرق السوء، المؤمن هين ليس، بقى نقي، ركب رغبى، لا يلدغ من
 نجى مرتين، شاحب لونه، شاعث رأسه، قليل طعمه، كثير
 يؤذ منه، شئى ذو نيا، المؤمن كبير الوفا، مكرم الوفاء، مطيع
 للجناب، هارب من عذاب النار، ونفسه يترقد الله شاهده،
 وجوار حذائه ذاكزة، ويده بالمعروف مبسوطة، وهود من
 محاسبة نفسه فى تعب والناس منه ذراخه، المؤمن صادق
 إذا وعد، قريب الرضى، يمد العقب يعط إذا عده، ويقوم إذا يؤم
 من حاجه سله، ومن خالطه عجم، كابل العقل كبير العسل،
 قليل الأكل، حسن الخلق، كثرة العظيمة، موكى فأبكانا وذا
 فلما كان أخصاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الأزل
 فالأول حتى لميعة الله عز وجل، وهكذا كان المسلمون بن
 شلفكته، وإنما غير يكون لنا غير شرفه إلا الله لا غير
 ما يغير حتى يغيروا ما يغيرون، وإذا أراد الله بقوم رسول
 فلا مرد له، وما لهم من ذنوبه من قال لبيك قال الحسن

الله ربنا صل على سيدنا محمد وعلى آله الطاهرين، وأنش
 علينا ما شئت، بدو على إرادنا الخائبين، وأربابا بال اليقين،
 إنك على كل شئ قدير، وعلى كل خير سيديك، ونحن نألفك ونؤم
 الوصي
 وكان الفراغ من هذا الكتاب بعنوان الملك الهين الوعاث
 بيننا ونحنها، وتصيحنا ونحفظنا، على العبد الضعيف الغبير
 الراهب رجمة ربه الذى القدير كمال الدين حسين بن شاذلي
 محمد الكاتب بن خياشاد بن طالكرواني وأولف عليه
 من شاذيب وصلاته بحال، وفتح لهدى حضرت الشيخ
 ما انتبه بحال، وذلك في يوم الاثنين الرابع من شهر
 عشرى شهر الله المعظم رمضان حين شهر سنة ثمان مائة
 من الهجرة الشريفة النبوية، أحسن الله تعالى شأننا، أو قدره
 عافية تامها، وهو سبحانه المانع المبلغ، وهو حبنا ونوع الأمل
 والهدى حتى عهد، وصلى الله على سيدنا محمد رسوله وعباده
 وعلى آله وصحبه من بعد، وأخبر كون، وأخطب، محمد

صورة اللوحة الأخيرة من المخطوط

آداب
السِّرِّ البَصْرِ
وَزُهْدُهُ وَمَوَاعِظُهُ

تأليف
الإمام جمال الدين أبي الفرج ابن الجوزي
رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى

تحقيق
سليمان الحارثي

أبو سلوم المعتزلي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ أَهْلِ الْحَمْدِ وَمُسْتَحِقُّهُ، وَمُسْتَخْلِصِهِ لِنَفْسِهِ، وَمُسْتَوْجِبِهِ عَلَيَّ
خَلْقِهِ، الْأَوَّلِ بِلاِ ابْتِدَاءٍ، وَالْآخِرِ بِلاِ انْتِهَاءٍ، الَّذِي لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ
السَّمِيعُ الْبَصِيرُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ
مُحَمَّدًا ﷺ عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، أَرْسَلَهُ بِالهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ
كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ.

وَقَفْتُ - أَدَامَ اللَّهُ عِزَّكَ وَتَأْيِيدَكَ - عَلَى مَا أَلْتَمَسْتَهُ، وَرَغِبْتَ فِيهِ،
وَحَرَصْتَ عَلَيْهِ مِنْ جَمْعِ مَا هُوَ مُفْتَرَقٌ فِي الْكُتُبِ، مِنْ آدَابِ الْحَسَنِ بْنِ أَبِي
الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ - رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ -، وَزُهْدِهِ، وَمَوَاعِظِهِ، فَأَجَبْتُكَ إِلَى
ذَلِكَ، وَجَمَعْتُ مَا تَسَّرَ لِي جَمْعُهُ، وَأَثَبْتُ مَا انْتَهتِ الْقُدْرَةُ إِلَيْهِ؛ حِرْصاً
عَلَى بُلُوغِ مُرَادِكَ، وَقِضَاءِ لَوَاجِبِ حَقِّكَ، وَبِاللَّهِ أَسْتَعِينُ، وَهُوَ حَسْبِي وَنِعْمَ
الْوَكِيلُ، وَقَدْ رَسَمْتُ مَا جَمَعْتُهُ مِنْ ذَلِكَ عَلَى ثَمَانِيَةِ فُصُولٍ:

الفصل الأول: في ذكر منشئه، ووصفه أحواله وأفعاله.

الفصل الثاني: فيما روي عنه من الآداب، ومكارم الأخلاق.

الفصل الثالث: فيما أوردته من الحكم، والمواعظ مختصراً على جهة

البلاغة والإيجاز.

- الفصل الرابع : في ذم الدنيا، ونهيهِ عن التعلُّقِ بها .
- الفصل الخامس : فيما رُوِيَ عنه عند تلاوة القرآن من الحكيم
والمواعظ .
- الفصل السادس : فيما أوردَهُ على جِهَةِ الاستِغْفار والدعاء، ونهْيِهِ عن
التُّصْنَعِ والرِّياء .
- الفصل السابع : في مكاتباته للخلفاء، ومقاماته مع الأمراء .
- الفصل الثامن : فيما رُوِيَ عنه من المواعظ والحكم من سائر الأشياء .



الفصل الأول

في ذكر منشئه، وصفة أحواله وأفعاله

هو الحسن بن أبي الحسن البصري^(١). كان أبوه مولى لرجل من الأنصار، وكانت أمه مولاة لأُمّ سلمة؛ زوج النبي ﷺ، رُبِّيَ في حجرها، وأرضعته بلبانها، ودرَّ عليه ثديها؛ لبَّرها به، ومَحَبَّتُها له، فعادت عليه بركة النبوة، فتكلم بالحكمة، وارتقى في الصَّلاح والمعرفة إلى أفضل رُتَبَةٍ، وكان - رحمه الله - أحدَ المُتَّقِينَ، ومن أولياءِ الله الصَّديقين.

رُوي في الخبر: أن عائشة - رضي الله عنها - سمعت الحسن يتكلم، فقالت: مَنْ هذا الذي يتكلم بكلام الصَّديقين؟

وقيل لعلي بن الحسين^(٢) - رضي الله عنهما - : إن الحسن يقول: ليس

(١) لمزيد ترجمته انظر: «سير أعلام النبلاء» (٤/٥٦٣). «طبقات ابن سعد» (٧/١٥٦). «الزهد» للإمام أحمد (ص ٢٥٨). «حلية الأولياء» (٢/١٣١). «تهذيب الكمال» (٦/٩٥). «الجرح والتعديل» (٣/٤٠). «تذكرة الحفاظ» (١/٧١). «العبر» (١/١٠٣). «تاريخ الإسلام» (٤/٩٨). «البداية والنهاية» (٩/٢٦٦) وغيرها.

(٢) هو علي بن الحسين بن الإمام علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - زين العابدين، وُلد سنة ثمانٍ وثلاثينَ فَنَاءً، وكان ثقةً، مأموناً، كثير الحديث، ورعاً. مات سنة أربع وتسعين.

العَجَبُ لِمَنْ هَلَكَ كَيْفَ هَلَكَ ؟ وإنما العَجَبُ لِمَنْ نَجَا كَيْفَ نَجَا ؟ فقال عليٌّ : سبحانَ الله ! هذا كلامُ صِدِّيقٍ .

وَرُوِيَ عَنِ الْأَعْمَشِ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ : مَا زَالَ الْحَسَنُ يَعْتَنِي ^(١) بِالْحِكْمَةِ حَتَّى نَطَقَ بِهَا .

وَسَمِعَهُ آخِرُ وَهُوَ يَعِظُ ، فَقَالَ : اللَّهُ دَرُّهُ ، إِنَّهُ لَفَصِيحٌ ، ذُو لَفْظٍ صَحِيحٍ إِذَا وَعَظَ .

وَكَانَ الْحَسَنُ دَائِمَ الْحُزْنِ ، كَثِيرَ الْبُكَاءِ ، مَطَالِبًا نَفْسَهُ بِالْحَقَائِقِ ، بَعِيدًا مِنَ التَّصَنُّعِ ، لَا يُظْهِرُ التَّقَشُّفَ ، وَإِنْ كَانَ بَادِيًا عَلَيْهِ ، وَلَا يَدْعُ التَّجَمُّلَ ، وَلَا يَمْتَنِعُ مَنْ لُبَسَ جَيِّدَ الثِّيَابِ ، وَلَا يَتَخَلَّفُ عَنِ مُؤَاكَلَةِ النَّاسِ ، وَلَا يَتَأَخَّرُ عَنِ إِجَابَةِ الدَّاعِي إِلَى الطَّعَامِ ، وَكَانَ لَهُ سَمْتُ يَعْرِفُهُ بِهِ مَنْ لَمْ يَكُنْ رَأَاهُ .

رُوِيَ أَنَّ رَجُلًا دَخَلَ الْبَصْرَةَ ، وَلَمْ يَكُنْ رَأَى الْحَسَنَ ، فَسَأَلَ عَنْهُ الشَّعْبِيَّ ، فَقَالَ : ادْخُلِ الْمَسْجِدَ - عَافَاكَ اللَّهُ - فَإِذَا رَأَيْتَ رَجُلًا لَمْ تَرَ مِثْلَهُ قَطُّ رَجُلًا ، فَذَلِكَ هُوَ الْحَسَنُ .

وَقِيلَ : وَرَدَ أَعْرَابِيٌّ الْبَصْرَةَ ، فَقَالَ : مَنْ سَيِّدُ هَذَا الْمِصْرِ ؟ فَقَالُوا : الْحَسَنُ بْنُ أَبِي الْحَسَنِ ، قَالَ : فِيمَ سَادَ أَهْلُهُ ؟ قَالُوا : اسْتَغْنَى عَمَّا فِي أَيْدِيهِمْ مِنْ دُنْيَاهُمْ ، وَاحْتَاجُوا إِلَى مَا عِنْدَهُ مِنْ أَمْرِ دِينِهِمْ ، فَقَالَ الْأَعْرَابِيُّ : اللَّهُ دَرُّهُ ، هَكَذَا فليَكُنِ السَّيِّدُ حَقًّا .

وَقِيلَ : مَرَّ بِهِ رَاهِبَانِ ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ : مِلْ بِنَا إِلَى هَذَا الَّذِي يَشْبَهُ سَمْتَهُ سَمَّتَ الْمَسِيحِ ؛ لِنَنْظُرَ مَا عِنْدَهُ . فَلَمَّا قَرَّبَا مِنْهُ ، سَمِعَاهُ يَقُولُ :

(١) وفي «تهذيب الكمال» (٥٨/٦)، و«السير» (٥٨٤/٤)، و«حلية الأولياء» عن الأعمش : «ما زال الحسن يعي الحكمة . . .»

يا عجباً لقوم امروا بالزاد، ونودوا بالرحيل، وحبس أولئهم على آخرهم، فهم ينتظرون الوورد على ربهم؛ ثم هم بعد ذلك في سكرة يعمهون! ثم بكى حتى بلّ لحيته. فقال الراهبان: حسبنا ما سمعناه من الرجل، ثم انصرفا عنه.

وكان أهل البصرة إذا قيل لهم: من أعلم أهلها، ومن أروعهم، ومن أزهدهم، ومن أجملهم؟ بدؤوا به، وثنوا بغيره. فكانوا إذا ذكروا البصرة، قالوا: شيخها الحسن، وفتاها بكر بن عبد الله المزني^(١).

وقال عبد الواحد بن زيد: لو رأيت الحسن، لقلت: صب على هذا حزن الخلائق؛ من طول تلك الدمة، وكثرة ذلك النسيج.

وقيل له: صف لنا الحسن، فقال: رحم الله أبا سعيد، كان - والله - إذا قبل كأنه رجع من دفن حميمه، وإذا أدبر كأن النار فوق رأسه، وإذا جلس كأنه أسير قدّم لتضرب عنقه، وإذا أصبح كأنه جاء من الآخرة، وإذا أمسى كأنه مريض أضناه السقم.

قال يونس بن عبد الله: ما رأيت الحسن قط ضاحكاً بملء فيه.

وقيل: جلس محمد بن واسع إلى ثابت بن محمد البناني، فرأه يضحك في مجلسه ويمزح، فقال: عافاك الله! إنك لتمزح في مجلسك، ولقد كنا نجلس إلى الحسن فكأنه إذا خرج إلينا كأنه جاء من الآخرة يحدثنا من أهوالها.

(١) بكر بن عبد الله بن عمرو أبو عبد الله المزني البصري. الإمام القدوة، الواعظ، أحد الأعلام، يذكر مع الحسن وابن سيرين. مات سنة ست ومئة، وقيل: سنة ثمان ومئة، وهو الأصح كما قال الذهبي. انظر: «سير أعلام النبلاء» (٤/٥٣٢).

فقال ثابت: رحم الله الحسن، كان من أهل الحق والجِدِّ، وأنى لنا نظرة منه؟! وما نحن والحسن إلا كما قال الأول:

وإبن اللبون إذا ما لُزَّ في قرنٍ لم يستطع صولة البزل المقاعيس^(١)

وقيل: اعتزل الحسن الناس يوماً، فدخل عليه رجل، فقال: يا أبا سعيد! أصلحك الله، لقد خفنا عليك الوحشة، فقال: يا ابن أخي! لا يستوحش مع الله - سبحانه وتعالى - إلا أحمق.

وقال حميد خادم الحسن: قال لي الشعبي^(٢) يوماً: أريد أن تعلمني إذا خلا الحسن لأجتمع به خالياً، فأعلمت بذلك الحسن، فقال: عرفه، وليأت إذا شاء. فخلا الحسن يوماً، فأعلمت الشعبي، فبادر وأتينا منزل الحسن، فوجدناه مستقبل القبلة وهو يقول: ابن آدم! لم تكن فكوئت، وسألت فأعطيت، وسئلت فبخلت، بئس والله - ويحك - ما صنعت! نسلمنا عليه، ووقفنا ساعة، فما التفت إلينا، ولا شعر بنا، فقال الشعبي: لرجل - والله - في غير ما نحن فيه، فانصرفنا ولم نجتمع به.

وقيل له يوماً: كيف أصبحت يا أبا سعيد؟ فقال: والله ما من انكسرت سمينه في لجج البحر بأعظم مني مصيبة، قيل: ولم ذلك؟ قال: لأنني من ذنوبي على يقين، ومن طاعتي وقبول عملي على وجل، لا أدري قبلت مني، أم ضرب بها وجهي؟ فقيل له: فأنت تقول ذلك يا أبا سعيد؟! فقال: ولم لا أقول ذلك؟! وما الذي يؤمّني أن يكون الله -

(البيت لجريير، ويروى: (القناعيس) كما في «اللسان» (١٧٨/٦).

(هو عامر بن شراحيل الشعبي، أبو عمرو، ثقة، مشهور، فقيه، فاضل، مات بعد المئة، وله نحو من ثمانين.

سبحانه وتعالى - قد نظر إليّ وأنا على بعض هناتي نظرة ممتني بها، فأغلق عني باب التوبة، وحال بيني وبين المغفرة، فأنا أعمل في غير مُعْتَمَلٍ؟
وقال له آخر: كيف حالك يا أبا سعيد؟ فقال: شرُّ حال، قال: ولم ذلك؟ قال: لأنني امرؤٌ أنتظر الموت إذا أصبحت، وإذا أمسيت، ثم لا أدري على أيِّ حالة أموت؟

ودخل عليه رجلٌ وهو يبكي، فقال: ما يُبكيك - أصلحك الله -؟
فقال: (أخاف)^(١) والله أن يُدخِلني مالكي النار ولا يُبالي.

وسأله عن الطامة رجلٌ؟ فقال: هي الساعة التي يُدفعُ الناسُ فيها إلى هذاب جهنم وبئس المصير؛ نعوذُ بالله من النار، ومن عملٍ يُؤدِّي إلى النار.

وذكرت النار يوماً في مجلسه فقال: روي عن النبي ﷺ أنه قال: «يُخرجُ غداً من النار رجلاً بعد أن يُقيمَ فيها أعواماً»^(٢)، ثم قال الحسن: ليتني كنتُ ذلك الرجل.

وكان يقول: ما صدقَ عبدٌ بالنار إلا ضاقت عليه الأرض بما رحبت، ولا والله ما صدقَ عبدٌ بالنار إلا ظهرَ ذلك في لحمه ودمه.
وقيل لأبي سليمان الداراني^(٣): إنَّ الحسنَ كان يقول: من أراد أن

(١) ساقطة من المخطوط، والاستدراك من المطبوع.

(٢) أصل الحديث عند البخاري في الرقاق: (٤١٦/١١)، وفي التوحيد من حديث أنس، عن النبي ﷺ: «يُخرجُ قومٌ من النار بعدما مسَّتهم منها سَنَعٌ، فيدخلون الجنة، فيسميهم أهل الجنة الجهنميين».

(٣) عبد الرحمن بن أحمد بن عطية العنسي المذحجي أبو سليمان الداراني، الزاهد، المشهور، من أهل داريا بغوطة دمشق، من كبار المتصوفة، توفي سنة (٢١٥ هـ).

يَخْشَعُ قَلْبُهُ، وَيَغْزُرَ دَمْعُهُ، فليأكل في نصفِ بطنه، فقال أبو سليمان: رحم الله أبا سعيد، كان - والله - من القوم الذين مهّدوا لأنفسهم، وناقشوها الحساب قبل يوم الحساب، وإني لأرجو أن يكون من الفائزين، رحمه الله تعالى.

وكان رجلٌ من أهل المسجد الحرام يقول: ما كنتُ أريدُ أن أجلسَ إلى قومٍ إلا وفيهم مَنْ يحدثُ عن الحسنِ بنِ أبي الحسنِ البصريِّ، رحمه الله. وقيل له يوماً: يا أبا سعيد! أيُّ شيءٍ يُدخِلُ الحُزنَ في القلبِ؟ فقال: الجوعُ، قال: فأيُّ شيءٍ يُخرِجُه؟ قال: الشَّبَعُ.

وكان يقولُ: توبوا إلى الله من كثرةِ النومِ والطعامِ.

وكان يقول: رُوِيَ عن النبي ﷺ أنه قال: «ما من عبدٍ جَوَّعَ نفسه إلا لم يكنُ لأحدٍ ثوابٍ أفضلُ من ثوابه ذلكَ اليومَ، إلا لِمَنْ جاءَ بمثلِ ما جاءَ به» - يريدُ: مَنْ صامَ لله سبحانه -.

وقال مالكُ بنُ دينارٍ^(١): دخلتُ يوماً على الحسنِ وهو يأكلُ، فقال: كُلْ يا بنَ أخي! فقلتُ: أكلتُ، فقال: وإن فعلتَ، فأسعدني! فقلتُ، والله لقد شَبَعْتُ، فقال الحسنُ: يا سبحانَ الله! ما كنتُ إخالُ أن مؤمناً يأكل حتى يشبعَ، فلا يقدرُ أن يساعداً أخاه.

وقيل: حضرَ الحسنُ وليمةً، وحضرَها رجلٌ من المُتَّقِفينَ، فلما قَدَّمتِ الحلواءُ، رفعَ يدهُ رياءً وتَصَنُّعاً، فأكلَ الحسنُ، وقال: كُلْ

(١) هو مالك بن دينار البصري، علم العلماء الأبرار، معدود من ثقات التابعين، يكتفى أبا يحيى، وُلِدَ في أيام العباس، وكان يكتب المصاحف، من العلماء الزهاد، مات قبل الطاعون بيسير، وكان الطاعون سنة إحدى وثلاثين ومئة.

يا لُكْعُ^(١)، فَلَنِعْمَةُ اللَّهِ عَلَيْكَ فِي الْمَاءِ الْبَارِدِ أَعْظَمُ مِنْ نِعْمَتِهِ عَلَيْكَ فِي الْحُلُوءِ.

وقيل: إنَّ الرجلَ كانَ اختزلَ من الطعامِ دَجاجةً، فقالَ الحَسَنُ: رُدَّ ما هوَ عليكِ حرامٌ، وكُلْ إن شئتَ ما هوَ لكِ حلالٌ، واحذرِ الرياءَ والتصنُّعَ؛ فإنَّ اللهَ تعالى يمقُتُ فاعِلَهُمَا.

وقيل: رأى الحسنُ شيخاً في جنازة، فلما فرغَ من الدَّفْنِ، قالَ له الحَسَنُ: يا شيخُ! أسألكَ برَبِّكَ: أتَظُنُّ أنَّ هذا المَيِّتَ يَورِدُ أن يُرَدَّ إلى الدنيا فيزيدَ من عملِهِ الصالحِ، ويستغفرَ اللهُ من ذنوبِهِ السالِفةِ؟ فقالَ الشيخُ: اللهمَّ نَعَمْ! فقالَ الحَسَنُ: فما بالنَّاسِ لا نَكونُ كُلُّنا كَهذا المَيِّتِ؟! ثم انصرفَ وهو يقول: أيُّ موعظةٍ؟ ما أبلَغَها لو كانَ بالقلوبِ حياةً؟ ولكنَّ لا حياةَ لِمَن تُنادي.

ولقيته رجلٌ - وهو يريدُ المسجدَ في ليلةٍ مظلمةٍ ذاتِ رَدغٍ^(٢) - فقالَ: أفي مثلِ هذهِ الليلةِ تخرجُ يا أبا سعيدٍ؟! فقالَ: يابنَ أخي! هو التَّسديدُ أو الهلكةُ.

وكان - رحمهُ اللهُ - صاحبَ ليلٍ.

وكان يقولُ: ما رأيتُ شيئاً من العبادةِ أشدَّ من الصلاةِ في جَوْفِ الليلِ، وإنَّها لَمِنَ أفعالِ المُتقينِ.

وكان يقولُ: صلاةُ الليلِ فرضٌ على المسلمينِ، ولو قدَّرَ حَلِبُ شاةٍ، أو فُواقِ ناقةٍ.

(١) اللُكْعُ: اللثيمُ، والعبْدُ، والأحمقُ، ومن لا يتَّجِهَ لمنطِقٍ ولا غيره.

(٢) الرَدْغَةُ - محرَّكة، وتسكن - : الماءُ والهلينُ، والوَحْلُ الشَّدِيدُ.

وكان يقول: إذا لم تقدر على قيام الليل، ولا صيام النهار، فاعلم أنك محروم؛ قد كَبَلْتِكَ الْخَطَايَا وَالذُّنُوبَ.

وكان يقول: منع البرّ النوم، ومن خاف القوات أدلج^(١).

وقال له رجل: يا أبا سعيد! أعياني قيام الليل، فما أطيقه، فقال: يا ابن أخي! استغفر الله، وتب إليه، فإنها علامة سوء.

وكان يقول: إن الرجل ليذنب الذنب فيحرم به قيام الليل.

وقيل: حاول الحسن الصلاة ليلة، فلم تطاوعه نفسه، فجلس سائر الليلة لم ينم فيها حتى أصبح، فقيل له في ذلك، فقال: غلبتني نفسي على ترك الصلاة، فغلبتها على ترك النوم، وايم الله! لا أزال بها كذلك حتى تذل وتطاوع.

وكان يقول: إن النفس أمارة بالسوء، فإن عصتك في الطاعة، فاعصها أنت في المعصية.

وقيل لعبد الواحد صاحب الحسن: أي شيء بلغ الحسن فيكم إلى ما بلغ، وكان فيكم علماء وفقهاء؟ فقال: إن شئت عرفتك بواحدة، أو اثنتين، فقلت: عرفني بالاثنتين، فقال: كان إذا أمر بشيء أعمل الناس به، وإذا نهى عن شيء أترك الناس له، قلت: فما الواحدة؟ قال: لم أر أحداً قط سريرته أشبه بعلايته منه.

وقيل للحسن في شيء قاله: ما سمعنا أحداً من الفقهاء يقول هذا! فقال: وهل رأيتم فقيهاً قط؟! إنما الفقيه: الزاهد في الدنيا، الراغب في الآخرة، الدائب على العبادة، الذي لا يُداري ولا يُماري، ينشر

(١) والدلجة: بالضم والفتح: السير من أول الليل.

حكمة الله، إن قبِلت منه، حميد الله، وإن رُدَّت عليه، حميد الله.

وقيل: خطب إليه رجل ابنته، وبذل لها مئة ألف درهم، فقالت أمها: **رُوجُه**؛ فقد أرغبتها في الصداق، وبذل لها ما ترى، فقال الحسن: إن رجلاً بذل في صداق امرأة مئة ألف لجاهل مغرور يجب ألا يرغب في مناكحتيه، ولا يحرص على مصاهرته. وترك تزويجه، وزوجها من رجل صالح.

وقيل: شاوره رجل فقال: يا أبا سعيد! لي ابنة أحبها، وقد خطبها رجلاً من أهل الدنيا، فمن ترى لي أن أزوجهها؟ فقال: زوجها من تقي، إن أحبها أكرمها؛ وإن أبغضها لم يظلمها.

وقيل ليوسف بن عبيد: هل تعرف رجلاً يعمل بعمل الحسن؟ فقال: رحم الله الحسن، والله ما أعلم أحداً يقول بقوله، فكيف يعمل بعمله؟! كال - والله - إذا ذكرت النار عنده كأنه لم يخلق إلا لها، وما ربي قط إلا وكأن النار والجنة بين عينيه خشيته ورجاءه، لا يغلب أحدهما صاحبه.

وقال حميد خادم الحسن: دخلنا على الحسن في بعض عليله نعوذ، فقال: مرحباً وأهلاً بكم، حياكم الله بالسلام، وأحلنا وإياكم دار المقام. فقلنا: عظنا يرحمك الله! فإننا نرجو الانتفاع بما نسمع منك.

فقال: هذه علانية حسنة إن صدقتم وصبرتم واتقيتم، معاشر إخواني! لا يكن حظكم من الخير سماعه بأذن، وخروجه من أذن؛ فإنه من رأى محمداً ﷺ رآه غادياً ورائحاً، لم يضع لينة على لينة، ولا قصبه على قصبه، بل رفع له ﷺ علم الهداية، فشمّر إليه، فهيناً لمن اتبع سببه، وانقضى أثره، الوحا الوحا^(١)، ثم النجاء النجاء، علام تفرحون

(١) الوحا: العجلة والإسراع.

ولا تَحْزَنُونَ؟ أَيْتُمُ وَرَبُّ الْكَعْبَةِ! كَأَنكُمْ - وَاللَّهِ - وَالْأَمْرُ قَدْ جَاءَ مَعًا،
وَالسَّعِيدُ مَنِ اعْتَدَّ لَهُ .

قال أبو عبد الرحمن: دخلنا على الحسن وهو عليل، فأحضر كاتباً
ليكتب وصيته، ثم قال: اكتب: بسم الله الرحمن الرحيم
أما بعد: فإن الحسن عبد الله وابن أمته، يشهد أن لا إله إلا الله وحده
لا شريك له، وأن محمداً ﷺ عبده ورسوله، من لقي الله بها صادقاً لسانه،
مخلصاً قلبه، أدخله الله الجنة.

ثم قال: سمعتُ معاذاً يقول ذلك، ويوصي به أهله، ثم قال معاذ:
سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول ذلك، ويوصي به أهله.

وقيل: لما احتضر الحسن، جزع جزعاً شديداً، فقال له ولده: لقد
أفزعتنا بجزعك هذا يا أبت، فقال: يا بني! قد جاء الحق، وزهق الباطل،
وها أنا أصابُ بنفسي التي لم أصبْ بِمِثْلِهَا.

وقال مالك بن دينار: رأيتُ الحسن - رحمه الله عليه - في منامي - بعد
أن مات - مسروراً، شديد البياض، تبرق مجاري دموعه، فقلت: ألسنتُ
من الموتى؟ فقال: بلى! قلت: فماذا صرّت إليه بعد الموت . . فلعمري
لقد طال حزنك في الدنيا؟ فقال: رفع - والله - لنا ذلك الحزن علم الهداية
إلى منازل الأبرار، فحللنا بثوابه مساكن المتقين، وايم الله! إن ذلك إلا من
فضل الله علينا. قلت: فما تأمرنا به يا أبا سعيد؟ قال: وما عسى؟ إن
أطول الناس حُزناً في الدنيا أطولهم فرحاً في الآخرة.

وقال صالح المري^(١): دخلتُ على الحسن يوماً، فسمعته ينشد:

(١) صالح المري، الزاهد، واعظ أهل البصرة، أبو بشر بن بشير القاص، كان ضعيفاً -

ليس من مات فاستراح بميت
إنما الميت من تراه كثيراً
وكان إذا أصبح وفرغ من تسبيحه، أنشد:

وما الدنيا بياقية لحَيٍّ ولا حَيٍّ على الدنيا بياقي
وإذا أمسى، بكى وتمثل:

يسرُّ الفتى ما كان قدَّم من تقى إذا عرَفَ الداءَ الذي هو قاتله
قال حميدٌ: دخلنا على الحسنِ يوماً، فوجدناه يبكي ويُشِدُّ:

دَعْوُهُ لَا تَلُوْمُوهُ دَعْوُهُ فَقَدْ عَلِمَ الَّذِي لَمْ تَعْلَمُوهُ
رَأَى عِلْمَ الْهُدَى فَسَمَّا إِلَيْهِ وَطَالَبَ مَطْلَبًا لَمْ تَطْلُبُوهُ
أَجَابَ دُعَاءَهُ لَمَّا دَعَاهُ وَقَامَ بِأَمْرِهِ وَأَضَعْتُمُوهُ
بِنَفْسِي ذَاكَ مِنْ فِطْنٍ لَيْبٍ تَذَوَّقَ مَطْعَمًا لَمْ تَطْعَمُوهُ

قال: وسمعه يوماً آخر يبكي ويقول: أَيُّ رَبِّ! مَتَى أُؤَدِّي شُكْرَ نِعْمَتِكَ
التي لا تُؤَدِّي إِلَّا بِنِعْمَةٍ مُخَدَّئَةٍ، وَمَعُونَةٍ مُجَدَّدَةٍ؟! مَا أَخْسَرَ صَفْقَةً مَنْ
صُرِفَ عَنِ بَابِكَ، وَضُرِبَ دُونَهُ حِجَابُكَ! ثم أنشد:

إذا أنا لم أشكرك جهدي وطاقتي ولم أصف من قلبي لك الودَّ أجمعا
فلا سلمت نفسي من السقم ساعة ولا أبصرت عيني من الشمس مطلقا

ثم استغفر وبكى، وقال: القلب الذي يحبُّ الله يُحبُّ التَّعبَ، ويؤثِّرُ
النَّصَبَ، هيئات، لا ينالُ الجنةَ مَنْ يؤثِّرُ الراحةَ. مَنْ أَحَبَّ سَخَا. مَنْ

الرواية. مات سنة اثنين وسبعين ومئة.

أَحَبُّ، سَخَا بِنَفْسِهِ إِنْ صَدَقَ، وَتَرَكَ الْأَمَانِيَّ؛ فَإِنَّهَا سِلَاحُ النَّوْكَى (١).
وَقَالَ لَهُ رَجُلٌ يَوْمًا: يَا أَبَا سَعِيدٍ! مَا بَالُ الْمُتَهَجِّدِينَ مِنْ أَحْسَنِ النَّاسِ
وُجُوهاً؟ قَالَ: لِأَنَّهُمْ خَلَوْا بِالرَّحْمَنِ، فَأَلْبَسَهُمْ مِنْ نُورِهِ، فَهُوَ يَبْدُو عَلَى
وُجُوهِهِمْ.

وَقِيلَ لَهُ: يَا أَبَا سَعِيدٍ! كَيْفَ تَرَى فِي الرَّجُلِ يُذْنِبُ، ثُمَّ يَتُوبُ، ثُمَّ
يَعُودُ؟ فَقَالَ: مَا أَعْرَفُ هَذَا مِنْ أَخْلَاقِ الْمُؤْمِنِينَ.

وَذَكَرَ بِحَضْرَتِهِ الصَّحَابَةَ - رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ - فَقَالَ: قَدَّسَ اللَّهُ
أَرْوَاحَهُمْ، شَهِدُوا وَغَيْبْنَا، وَعَلِمُوا وَجَهِلْنَا، فَمَا أَجْمَعُوا عَلَيْهِ اتَّبَعْنَا،
وَمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَقَفْنَا.

وَكَانَ يَقُولُ: كَنَسُ الْمَسَاجِدِ وَعِمَارَتُهَا بِالذِّكْرِ نُقُودُ الْحُورِ الْعَيْنِ.
وَكَانَ يَقُولُ: حَقِيقٌ عَلَى مَنْ عَرَفَ أَنَّ الْمَوْتَ مَوْرِدُهُ، وَالْقِيَامَةَ مَوْعِدُهُ،
وَالْوُقُوفَ بَيْنَ يَدَيِ الْجَبَّارِ مَشْهَدُهُ، أَنْ تَطُولَ فِي الدُّنْيَا حَسْرَتُهُ، وَفِي الْعَمَلِ
الصَّالِحِ رَغْبَتُهُ.

وَاتَّصَلَ بِهِ أَنَّ رَجُلًا اغْتَابَهُ، فَبَعَثَ إِلَيْهِ بِطَبِيبٍ فِيهِ رُطْبٌ وَقَالَ: أَهْدَيْتَ
إِلَيَّ بَاغْتِيَابِكَ لِي حَسَنَاتِكَ، فَكَافَأْتُكَ عَلَيْهَا، فَاسْتَحْيَا الرَّجُلُ، وَلَمْ يَعُدْ
لذِكْرِهِ بِسَوْءٍ.

وَكَانَ إِذَا رَأَى أَنَّ رَجُلًا كَثِيرُ الْبَطَالَةِ غَيْرُ مُسْتَعْلٍ بِمَا يَعْنِيهِ مِنْ أَمْرِ دِينِهِ،
أَنشدهُ:

يَسْرُوكَ أَنْ تَكُونَ رَفِيقَ قَوْمٍ لَهُمْ زَادٌ وَأَنْتَ بِغَيْرِ زَادٍ
وَكَانَ يَقُولُ: يَا بَنَ آدَمَ! نَهَارُكَ ضَيْقُكَ، فَأَحْسِنْ إِلَيْهِ؛ فَإِنَّكَ إِنْ أَحْسَنْتَ

(١) النَّوْكَ - بِالضَّمِّ وَالْفَتْحِ -: الْحَمَقُ.

إليه، ارتحل بِحَمْدِكَ، وإن أسأت إلي، ارتحل بِذَمِّكَ، وكذلك لَيْلَتُكَ .
وَوُلِدَ لَهُ غُلَامٌ فَهَنَّاهُ جُلْسَاؤُهُ، وقالوا: بَارِكْ اللهُ لَكَ فِي هَبْتِهِ، وزادَكَ
مِنْ نِعْمَتِهِ، فقال: الحمدُ لله على كُلِّ حَسَنَةٍ، ونسألُ اللهَ الزيادةَ مِنْ كُلِّ
نِعْمَةٍ، ولا مَرَحَباً بِمَنْ إن كنتُ عابِلاً أَنْصَبَنِي، وإن كنتُ غَنِيّاً أَذْهَلَنِي،
وَبِمَنْ لا أرضى بِسَعْيِي لَهُ سَعياً، ولا بِكَدِّي لَهُ فِي الحَيَاةِ كَدّاً، حتى أُشْفِقَ
عليه مِنْ الفَاقَةِ بعدَ وفاتي، وأنا في حالٍ لا يصلُ إليّ مِنْ هَمِّهِ حُزْناً،
ولا مِنْ فَرَحِهِ سروراً.

وكان يقولُ: إنَّ خَوْفَكَ حتى تَلْقَى الأَمْنَ؛ خَيْرٌ مِنْ أَمْنِكَ حتى تَلْقَى
الخَوْفَ.

وكان يقولُ: ما رأيتُ شيئاً لا شَكَّ فيه أَصْبَحَ شَكّاً لا يَقِينُ فيه، مِنْ
يَقِينِنَا بالموتِ، وَعَمَلِنَا لغيرِهِ.

وكان يقولُ: رُوِيَ عن النبي ﷺ أنه قال: «ما مِنْ صَدَقَةٍ أَفْضَلَ مِنْ
صَدَقَةِ اللِّسانِ»، قيل: يا رسولَ الله! وما صَدَقَةُ اللِّسانِ؟ قال: «الشَّفَاعَةُ
الحَسَنَةُ، يُخْفِي اللهُ بِها الذَّمِيمَةَ، وَيَقْضِي الحَاجَةَ، وَيُفَرِّجُ الكُرْبَةَ».



الفصل الثاني

فيما أورده من الآداب ومكارم الأخلاق

رُوي عن الحسن - رحمه الله - أنه كان يقول: قضاء حاجة أخ مسلم أحب إلي من اعتكاف شهر.
وسأله رجل عن حُسن الخلق ما هو؟ فقال: البذل، والعفو، والاحتمال.

وكان يقول: مروءة الرجل: صدق لسانه، واحتماله مؤنة إخوانه، وبذله المعروف لأهل زمانه، وكفه الأذى عن جيرانه.
وكان يقول: لو شاء الله - عز وجل - لجعلكم أغنياء لا فقير فيكم، ولو شاء لجعلكم فقراء ولا غني فيكم، ولكن ابتلى بعضكم ببعض لينظر كيف تعملون.

ثم دلَّ عبادة على مكارم الأخلاق، فقال - جل جلاله - : ﴿ وَيُؤْتِرُونَكَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾^(١).

وقال: عِدَّةُ الْكَرِيمِ: فِعْلٌ وَتَعْجِيلٌ، وَعِدَّةُ اللَّئِيمِ: تَسْوِيفٌ وَتَطْوِيلٌ.

(١) سورة الحشر: ٩.

وكان يقول: ما أنصفك من كلفك إجلاله، ومنعك ماله.

وقال: كنا نعدُّ البخيلَ منا الذي يُقرضَ أخاه الدرهم؛ إذ كنا نعاملُ بالمُشاركة والإيثار. والله! لقد كان أحدُ من رأيتُ وصحبتُ يشقُّ إزاره ليؤثِرُ أخاه بنصفه، ويبقي له ما بقي، ولقد كان الرجلُ ممن كان قبلكم بصوم، فإذا كان عندَ فطره، مرَّ على بعضِ إخوانه، فيقول: إني صُمتُ هذا اليومَ لله، وأردتُ إن تقبلَهُ اللهُ مني أن يكونَ لك فيه حظٌّ، فهلَمَّ شيئاً من عشايتك، فيأتيه الآخرُ ما تيسَّرَ من ماءٍ وتمرٍ يُفطرُ عليه يبتغي أن يكسبه أجراً، وإن كان غنياً عن الذي عنده.

وكان يقول: أدركتُ أقواماً، وإنَّ الرجلَ منهم ليخلفُ أخاه في أهله وولديه أربعين سنةً بعدَ موته.

وكان يقول: إذا دخلَ الرجلُ بيتَ صديقه، فلا بأسَ عليه أن يتناولَ مما حضرَ من طعامه وفاكهته بغيرِ إذنه.

وكان يقول: ما من نفقةٍ إلا والعبدُ يُحاسبُ عليها، إلا نفقتهُ على والديه فمن دونهما، أو نفقتهُ على أخيه في الله، وصاحبه في طاعته؛ فإنه روي أن الله - سبحانه وتعالى - يستحي أن يُحاسبه عليها.

وكان يقول: ليسَ من المروءة أن يربحَ الرجلُ على أخيه.

وكان يقول: احذرُ ممن نقلَ إليك حديثَ غيرك، فإنه سينقلُ إلى غيرك حديثك.

وكان يقول: ابنَ آدم! عملك لك، انظرُ على أيِّ حالٍ تُحبُّ أن تلقى عليها ربك؟

وكان يقول: إنَّ لأهلَ الخيرِ علامةً يُعرفون بها: صدقُ الحديثِ، وأداءُ

الأمانة، والوفاء بالعهد، وقلة الفخر والخيلاء، وصلته الرّحم، ورّحمة الضعفاء، وبذل المعروف، وحسن الخلق، وسعة الحلم، وبث العلم، وقلة مفاضة^(١) النساء.

وكان يقول: ابن آدم! عفت عن محارم الله تكن عابداً، وارض بما قسم الله تكن غنياً، وأحسن جوار من جاورك تكن مؤمناً، وأحب للناس ما تحب لنفسك تكن عدلاً، وأقل الضحك؛ فإنه يميت القلب كما يموت البدن.

وكان يقول: أيها الناس! إنكم لا تنالون ما تحبون إلا بشرك ما تشتهون، ولا تدركون ما تأملون إلا بالصبر على ما تكرهون.

وكان يقول: الصبر كثر من كنوز الجنة، وإنما يدرك الإنسان الخير كله بصبر ساعة.

وكان يقول: من أعطي درجة الرضا، كفي المؤمن، ومن كفي المؤمن، صبر على المحن.

وقيل: سب رجلاً بحضرة الحسن، فقام المسبوب وهو يمسح العرق عن وجهه، ويتلو: ﴿وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾^(٢)، فقال الحسن: لله دَرَّةٌ، عقلها - والله - حين ضيعها الجاهلون.

وقال: ابن آدم! لتصبرن أو لتهلكن.

وقال: لقد روي: أن رجلاً شتم أبا ذر - رحمه الله - فقال: إن بيني وبين الجنة عقبه، إن جزتها، فأنا خير مما تقول، وإن عوج بي دونها إلى

(١) مفاضة النساء: مجالسهن.

(٢) سورة الشورى: ٤٣.

النار، فأنا أشدُّ مما قلت، فانتبه أيها الرجل؛ فإنك تصيرُ إلى مَنْ يعلمُ خائنةَ
الأعينِ وما تُخفي الصدورُ.

وقيل: شتمَ رجلٌ رجلاً، فقال: لولا أن الله - عزَّ وجلَّ - [يسمعُ،
لأَجَبْتُكَ].

وكان يقول: الصَّبْرُ صَبْرَان: صَبْرٌ عِنْدَ الْمُصِيبَةِ، وَصَبْرٌ عَنِ الْمَعْصِيَةِ،
فَمَنْ قَدَرَ عَلَى ذَلِكَ، فَقَدْ نَالَ أَفْضَلَ الصَّبْرَيْنِ.

وكان يقول^(١): مَا مِنْ جُرْعَةٍ أَحَبَّ إِلَى اللَّهِ - عزَّ وجلَّ - مِنْ جُرْعَةٍ
مُصِيبَةٍ مُوجِعَةٍ يَتَجَرَّعُهَا صَاحِبُهَا بِحُسْنِ عَزَاءٍ وَصَبْرٍ، أَوْ جُرْعَةٍ غَمِظٍ يَحْمِلُهَا
بِفَضْلِ عَفْوٍ وَحِلْمٍ.

وكان يقول: ابْنَ آدَمَ! إِنَّكَ لَنْ تَجْمَعَ إِيمَانًا وَخِيَانَةً، كَيْفَ تَكُونُ مُؤْمِنًا
وَلَا يَأْمَنُكَ جَارُكَ؟ أَوْ تَكُونُ مُسْلِمًا وَلَا يَسْلَمُ النَّاسُ مِنْكَ، أَلَيْسَ قَدْ رُوِيَ
عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «لَا إِيمَانَ لِمَنْ لَا أَمَانَةَ لَهُ، وَلَا دِينَ لِمَنْ لَا عَهْدَ
لَهُ»^(٢).

وكان - عليه السلام - يقول: «لَيْسَ بِمُؤْمِنٍ مَنْ خَافَ جَارَهُ بِوَأْتِقَةٍ»^(٣).

(١) الزيادة من المطبوع، ولا يستقيم الكلام إلا بها.

(٢) حديث حسن رواه الإمام أحمد (١٣٥/١، ١٥٤، ٢١٠، ٢٥١). والبيهقي في
«السنن الكبرى» (٢٨٨/٦). وابن حبان «الإحسان» (٣٦١/١). و«السنة» لعبد الله:
برقم (٨٠٥). و«شرح السنة» (٧٥/١)، وحسنه.

(٣) رواه البخاري من حديث أبي شريح في الأدب، باب: إثم من لا يأمن جاره بوائقه
(٤٤٣/١٠) بلفظ: «والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، قيل: مَنْ
يُرسولُ الله؟ قال: الذي لا يأمنُ جاره بوائقه». ومسلم في الإيمان، باب: تحريم
إيذاء الجار (٤٦/١).

ثم يقولُ الحسنُ - رحمه الله - : ابن آدم! إنَّكَ لا تستحقُّ حقيقةَ الإيمانِ حتى لا تعيبَ الناسَ بِعَيْبِ هُوَ فِيكَ، فأصلحْ عَيْبَ نَفْسِكَ، فإنَّكَ لا تُصلِحُ عيباً إلا وجدتَ عيباً آخرَ أنتَ أولى بِاصلاحِهِ .

ابن آدم! إن تكنُ عدلاً، فاجعلْ لك عن عُيوبِ الناسِ سُغلاً؛ فإنَّ أحبَّ العبادِ إلى الله من كان كذلك .

وقيل : أنشدَهُ رجلٌ يوماً :

وأَجراً مَنْ رأيتُ بِظَهْرِ غَيْبِ عَلَى عَيْبِ الرِّجَالِ ذَوو العُيُوبِ
فقال : لله دَرُّ القَائِلِ ! إنه كما قال .

وكان يقولُ : ابن آدم! ما أوْهَنَكَ وأكثرَ غَفْلَتِكَ ! تعيبُ الناسَ بالذنوبِ ، وتُنساها من نَفْسِكَ ، وتُبصِرُ القَدِي في عينِ أخيك ، وتعمى عن الجذعِ مُعْتَرِضاً في عَيْنِكَ ، ما أقلُّ إنصافِكَ ، وأكثرَ حَيْفِكَ ! .

وكان يقولُ : رُوِيَ أن رسولَ الله ﷺ قال : «أهلُ المعروفِ في الدنيا هم أهلُ المعروفِ في الآخرةِ»^(١) . وذلك أن الله - عزَّ وجلَّ - غفرَ لهم ذنوبَهُم ، بما أسدَوْهُ من المعروفِ إلى خَلْقِهِ في دارِ الدنيا ، ثم يقولُ لهم يومَ القيامةِ : «هَبُوا حَسَنَاتِكُمْ لِمَنْ شِئْتُمْ ، فقد غَفَرْتُ لَكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ ، فَهَبُوا حَسَنَاتِهِمْ ، فيكونونَ أهلَ معروفٍ في الآخرةِ ، كما كانوا في الدنيا .

وسئل : أيُّ الأخلاقِ أفضلُ ؟ فقال : الجُودُ والصَّدقُ .

(١) رواه الحاكم (١/١٢٤) . وابن عساکر (٢/٣٠١) . وفي «كشف الخفاء» برقم (٨١٣) . و «مجمع الزوائد» من طرق لا تخلو من مقال (٧/٢٦٢) . و «مسند الفردوس» (١/٤٠٩) . وأبو نعيم في «الحلية» (٩/٣١٩) . وقد صححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» برقم (٢٠٣٠) . ورواه الإمام أحمد في «الزهد» (ص ٤٧٨) .

وكان يقول: أدركتُ فرماً ما كان أحدُهم بديناره ولا بدينارهمه أحمق به من أخيه المسلم، فما بالكم - معشر الناس - تحمّلون على ما به تؤاخذون، وعليه تحاسبون؟! ١

وسمع رجلاً يُحاسبُ آخرَ، ويقول: بقي لي عليك دائق^(١)، فقال: لا ندنقوا فيدنتق الله عليكم، لعن الله الدائق، ومن دنتق الدائق.

وكان يقول: إنه لا دين لمن لا مروءة له.

وكان يقول: من حبس الطعام أربعين يوماً يطلب إغلاءه، ثم لو ملحنه، وخبزه، وأطعمه المساكين، لم ينج من إثمه، ولا يسلم من ذنبه.

وكان يقول: ليس حُسنُ الجوار كَفَّ الأذى، وإنما حُسنُ الجوار احتمالُ الأذى.

وكان يقول: أربعٌ من كُنَّ فيه عصمه الله - عزَّ وجلَّ - من الشيطان، وعافاه من النار: من ملك نفسه عند الرهبة والرغبة، والحدة والشهوة.

وكان يقول: العلمُ خيرٌ تُراثٍ، والأدبُ أزينُ خدين^(٢)، والتقوى خيرٌ زاد، والعبادةُ أربعُ بضاعة، والعقلُ خيرٌ وافِدٍ، وحُسنُ الخلقِ خيرٌ قرين، والحلمُ خيرٌ وزير، والقناعةُ أفضلُ غنى، والتوفيقُ خيرٌ مُعين، وذكرُ الموتِ أوْعظُ وأعِظ.

وكان يقول: لا تكن ممن يجمع علم العلماء، وحكم الحكماء، ويجري في الحق مجرى السفهاء.

وكان يقول: أربعٌ من كُنَّ فيه أدخله الله الجنة، ونشر عليه الرحمة: من

(١) الدائق: هو سُدُسُ الدينار والدرهم. انظر: «السان العرب» (١٠/١٠٥).

(٢) أزين خدين: خير صديق. انظر: «السان العرب» (١٣/١٣٩).

بِرِّ وَالِدَيْهِ، وَرَفَقَ بِمَسْلُوكِهِ، وَكَفَلَ الْيَتِيمَ، وَأَعَانَ الضَّعِيفَ.

وكان يقولُ: إنَّ الحَسَدَ في دينِ المسلمِ أسرعُ من الآكلَةِ في جَسَدِهِ.

وكان يقولُ: رُوِيَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يقولُ: «العِلْمُ عِلْمَانِ: عِلْمٌ في القلبِ، فَذلكَ العِلْمُ النَافِعُ، وَعِلْمٌ على اللسانِ، فَذلكَ حُجَّةُ اللَّهِ على ابنِ آدَمَ»^(١).

وكان يقولُ: المؤمنُ الكَيِّسُ الفَطِنُ، الذي كَلَّمَ زادَهُ اللهُ إِحساناً، ازدادَ من اللهِ خَوْفاً.

وكان يقولُ: المؤمنُ أَحسَنُ عَمَلًا، وَأشدُّهُمْ من اللهِ خَوْفاً، لو أنْفَقَ في سبيلِ اللهِ مِليءَ الأَرْضِ ذَهَبًا، ما أَمِنَ حتَّى يُعَايِنَ، ويقولُ أبدأ: لا أَنْجو، لا أَنْجو، والمنافقُ يقولُ: سوادُ الناسِ كَثِيرٌ، وما عسى ذنبي في جُمْلَةِ الذنوبِ؟ إِنَّ اللهَ رَحِيمٌ، وَسَيَغْفِرُ لي.

ثم يقولُ الحَسَنُ: ابنُ آدَمَ! تَعْمَلُ بالسَّيِّئَاتِ، وَتَتَمَنَّى على اللهِ الأمانِي؟!!

وكان يقولُ: مَنْ ساءَ خُلُقُهُ، عَذَبَ نَفْسَهُ، وَمَنْ كَثُرَ مالُهُ، كَثُرَتْ ذنوبُهُ، وَمَنْ كَثُرَ كَلامُهُ، كَثُرَ سَقَطُهُ.

وكان يقولُ: لولا العِلْمُ، كانَ الناسُ كالبهائمِ.

ورُوِيَ عنه: أَنَّ عَمَرَ بنَ الخَطَّابِ - رضيَ اللهُ عنه - كانَ يقولُ: إِنَّ مِمَّا

(١) رواه الدارمي (١٠٢/١) مرسلاً، وابنُ عبد البرِّ في «جامع بيان العلم وفضله» (١٩٠/١)، وابنُ أبي شيبَةَ في «الزهد» (٢٣٥/١٣)، وابنُ العَبَّاسِ في «الزهد» (ص)

يُصْفِي لَكَ وَدَّ أَخِيكَ أَنْ تَبْدَأَهُ بِالسَّلَامِ إِذَا لَقَيْتَهُ، وَأَنْ تَدْعُوهُ بِأَحَبِّ الْأَسْمَاءِ إِلَيْهِ، وَأَنْ تُوسِّعَ لَهُ فِي الْمَجْلِسِ، ثُمَّ يَقُولُ الْحَسَنُ: لَقَدْ عَلَّمَكُمْ السَّلَفُ الصَّالِحُ الْأَدَبَ وَمَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ، فَتَعَلَّمُوا، رَحِمَكُمُ اللَّهُ.

وكان يقول: ما بالنا يلقي أحدنا أخاه فيخفي السؤال عنه، ويدعو له ويقول: غفر الله لنا ولك، وأدخلنا جنته، فإذا كان الدينار والدرهم، فهيهات؟! ويحككم ما هكذا كان سلفكم الصالح، فعلام تركتكم الاقتداء، وقد أمرتكم به!؟

وكان يقول: أيها الناس! ما بالنا نتقارب في العافية، وإذا نزل البلاء تبايننا؟! ما هكذا كان أصحاب رسول الله ﷺ، نعوذ بالله من خلاف عليهم.

وسمع رجلاً يكثر الكلام، فقال: يا بن أخي! أمسك عليك لسانك، لقد قيل: ما شيء أحق بسجن من لسان.

وروي أن النبي ﷺ قال: «وهل يكب الناس على مناخرهم في النار إلا حصائد ألسنتهم»^(١).

وكان يقول: لسان العارفين من وراء قلبه، فإذا أراد أن يتكلم تفكّر، فإن كان الكلام له، تكلم به، وإن كان عليه، سكت، وقلب الجاهل وراء لسانه، كلما هم بكلام، تكلم به.

(١) رواه الترمذي من حديث طويل في الإيمان، باب: ما جاء في حرمة الصلاة: برقم (٢٦١٧). وقال: هذا حديث حسن صحيح. وابن ماجه في الفتن، باب: كف اللسان في الفتنة: برقم (٣٩٧٣). وأحمد (٥/٢٣١، ٢٣٦، ٢٣٧). وقد شرح ابن رجب الحنبلي - رحمه الله تعالى - هذا الحديث في «جامع العلوم والحكم» (١٣٤/٢)، فليراجع، والحديث صحيح، بلفظه.

وكان يقول: رُوِيَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: «إِنَّ بُدْلَاءَ أُمَّتِي لَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِكَثْرَةِ صَلَاةٍ وَلَا صِيَامٍ، وَلَكِنْ يَدْخُلُونَهَا بِرَحْمَةِ اللَّهِ، وَسَلَامَةِ الصُّدُورِ، وَسَخَاوَةِ الْأَنْفُسِ، وَالرَّحْمَةِ لِكَافَّةِ الْمُسْلِمِينَ»^(١).

وكان يقول: رُوِيَ أَنَّ مُنَادِيًا يَنَادِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ: لِيَقُمْ مَنْ كَانَ لَهُ أَجْرٌ عَلَى اللَّهِ، فَلَا يَقُومُ إِلَّا رَجُلٌ قَضَى لِأَخِيهِ حَاجَةً، أَوْ عَفَا لَهُ عَنْ مَظْلَمَةٍ، أَوْ أَسَدَى إِلَيْهِ نِعْمَةً.

وكان يقول: الْعَاقِلُ لَا يَشْتَرِي عَدَاوَةَ رَجُلٍ وَاحِدٍ بِمِوَدَّةِ أَلْفِ رَجُلٍ، إِنَّهُ إِنْ فَعَلَ ذَلِكَ، خَسِرَ وَلَمْ يَرْبِحْ.

وكان يقول: عِزُّ الشَّرِيفِ أَدَبُهُ، وَتَقْوَاهُ حَسَبُهُ.

وكان يقول: مَنْ رَمَى أَخَاهُ بِذَنْبٍ قَدْ تَابَ إِلَى اللَّهِ - عِزٌّ وَجَلٌّ - مِنْهُ؛ لَمْ يَمُتْ حَتَّى يُبْتَلَى بِمِثْلِ ذَلِكَ الذَّنْبِ.

وقيل: سَأَلَهُ الرَّبِيعُ بْنُ صُبَيْحٍ^(٢)، فَقَالَ: يَا أَبَا سَعِيدٍ! مَا تَقُولُ فِي

(١) ضعيف، أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» من طريق صالح المرثي عن الحسن عن أبي سعيد الخدري. وصالح المرثي ضعيف كما أشار إلى ذلك الحافظ ابن حجر في «التقريب». وتدليس الحسن، وقد عنعن.

وقد رواه ابن أبي الدنيا في كتاب «السخاء» مرسلاً. والبيهقي في «شعب الإيمان». ورواه الديلمي في «مسند الفردوس» من طريق ابن لال معلقاً عن محمد بن عبد العزيز الدينوري. ومحمدٌ هذا قال فيه الذهبي في «ميزان الاعتدال» (٦٢٩/٣): «منكر الحديث».

وقد ساق له الحافظ ابن حجر في «اللسان» من منكراته هذا الحديث.

انظر: «سلسلة الأحاديث الضعيفة» للألباني: برقم (١٤٧٧)، فقد أشار إلى شدة ضعفه.

(٢) هو الربيع بن صبيح السعدي البصري مولى بني سعد، من أعيان مشايخ البصرة، أبو

العَشْرَ رَكَعَاتِ الَّتِي بَعْدَ صَلَاةِ الْعِشَاءِ، أَتَطَوُّعٌ هِيَ أَمْ سُنَّةٌ؟ فَقَالَ: لَيْسَتْ بِسُنَّةٍ، إِنَّهَا لَوْ كَانَتْ سُنَّةً، مَا وَسَّعَ الْمُسْلِمَ تَرْكُهَا، وَلَكِنْ يَا بْنَ أَخِي! مِنْ أَدَبِ الْعَبْدِ الْمُسْلِمِ، وَقَوَامِ أَمْرِهِ إِذَا عَوَّدَ نَفْسَهُ مِنَ الْخَيْرِ عَادَةً، أَوْ تَعَبَّدَ لِلَّهِ عِبَادَةً، أَنْ يَدَّابَ فِيهَا، وَيُقِيمَ دَهْرَهُ عَلَيْهَا^(١).

وكان يقول: مكتوبٌ في التوراة: الغنى في القناعة، والسلامة من الناس، والعافية في رَفْضِ الشهوة، والنجاة في ترك الرغبة، والتمتع في الدهر الطويل بالصبر في العمر القصير.

ثم يقول: تأدَّبُوا - رحكمُ الله - بأدابِ الله؛ وحافظوا على ما في كتبِ الله؛ تكونوا من أولياءِ الله.

وكان يقول: ما أنعمَ اللهُ على عبدٍ نعمةً؛ إلا وعليه فيها تباعةٌ، إلا ما كان من نعمتهِ على سليمانَ بن داودَ - عليهما السلام -؛ فإنَّ الله - عزَّ وجلَّ - يقول: ﴿ هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْكِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾^(٢).

وكان يقول: ما أطالَ عبدٌ الأملَ إلا أساءَ العملَ.

وكان يقول: إنَّما أنتَ أيُّها الإنسانُ عددٌ، فإذا مضى لك يومٌ، فقد مضى بَعْضُكَ.

- جعفر، توفي غازياً بأرض الهند سنة ستين ومئة.

(١) إن الله - تبارك وتعالى - أمرنا أن نعبدَه بما شرعه لنا من العبادات التوقيفية، وليست البدعية التي لم نؤمر بها، وما فعله رسول الله - ﷺ - على وجه التعبد فهو عبادة مشروعة قد أمرنا بفعلها. وهذا هو المراد من كلام الحسن - رحمه الله تعالى -: أن يدابَّ العبدُ ويقيم دهره على العبادة المشروعة التي أمرنا الله ورسوله بفعلها.

انظر: «قاعدة عظيمة نافعة في العبادات والفرق بين شرعيها وبدعيها» لشيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله تعالى - (٦٠).

(٢) سورة ص: ٣٩.

وكان يقول: رَحِمَ اللهُ ابنَ مسعودٍ كأنه عاينكم حين قال: زاهدكم راغب، ومُجْتَهِدُكُمْ مُقَصِّرٌ، وعالمكم جاهلٌ.

وكان يقول: مَنْ خافَ اللهُ، أخافَ اللهُ سبحانه منه كلَّ شيءٍ، ومَنْ خافَ الناسَ، أخافَهُ اللهُ مِنْ كُلِّ شيءٍ.

وكان يقول: قال عمرُ بنُ الخطَّابِ - رضي اللهُ عنه -: خالطوا وزايلوا^(١).

ثم يقولُ الحَسَنُ: خالطوا الناسَ في الأخلاقِ الكريمةِ، وزايلوهم في الأفعالِ القبيحةِ.

وكان يقول: يجبُ على المسلمِ لأهلِ مِلَّتِهِ أربعةُ أشياء: معونةُ مُحْسِنِيهِمْ، وإجابةُ داعِيهِمْ، والاستغفارُ لِمُذْنِبِيهِمْ، والدَّعْوَةُ إلى الحَقِّ لِمُذْبِرِيهِمْ.

وكان يقول: مَنْ وافقَ من أخيه المسلمِ شهوةً، أو قضى له حاجةً، غفرَ له ما تقدَّم من ذنبِهِ.

وكان يقول: رُوِيَ أَنَّ اللهُ - عزَّ وجلَّ - قالَ لآدَمَ - عليه السلام -: يا آدمُ! أربعٌ فيهنَّ جميعُ الأمرِ لك ولِوَلَدِكَ مِنْ بَعْدِكَ؛ واحدةٌ لي، وواحدةٌ لك، وواحدةٌ بيني وبينك، وواحدةٌ بينك وبين الناسِ. فأما التي لي، فأنَّ تَعْبُدَنِي لا تُشْرِكُ بي شيئاً، وأما التي لك، فَعَمَلُكَ أَجْرِيكَ به أَفْقَرُ ما تكونُ إليه، وأما التي بيني وبينك، فعليك الدُّعاءُ، وَعَلَيَّ الإجابةُ، وأما التي بينك وبين الناسِ، فأنَّ تَصَحُّبَهُمْ بما تُريدُ أن يَصْحَبوكَ به^(٢).

(١) والتزاييل: التباين، والتفرُّق. قال تعالى: ﴿فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ﴾ [يونس: ٢٨].

(٢) رواه أبو يعلى والبزار بمثله من حديث أنس. وفي إسناده صالح المري، وهو ضعيف.

وكان يقول: الفهم وعاء العلم، والعلم دليل العمل، والعمل قائد الخير، والهوى مركب المعاصي، والمال داء المنكرين، والدنيا سوق الآخرة، والويل كل الويل لمن قوي بنعم الله على معاصيه.

وكان يقول: ابن آدم! إن الإيمان ليس بالتحلي ولا بالتمني، ولكنه بما وفر في القلب، وصدقته الأعمال.

وقيل: نعي داود الطائي للحسن - رحمه الله -، فقال: غفر الله له، والله لقد كان كالعافية لا يعرف قدرها إلا عند فقدها، سمع ذلك حبيب بن أوس^(١) فقال:

والحادثات وإن أصابك بؤسها فهو الذي حقاً أنال نعيمها

وقيل: دعاه يوماً رجلاً من المتكبرين، فناداه: [يا أبو سعيد! فقال: يا أبا سعيد! ثم قال: تعلموا - رحمكم الله - العلم للأديان، والطب للأبدان، والنحو للغة وليم اللسان.

وكان يقول: من لحن في القرآن، فقد كذب على الله؛ لأن الله - سبحانه وتعالى - قال: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَطُلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾^(٢)، واللحن من أكبر الباطل.

وتدليس الحسن أيضاً. انظر: «مجمع الزوائد» (٥١/١).

(١) حبيب بن أوس بن الحارث بن قيس بن الأشج الطائي أبو تمام الشاعر المعروف، ولد في جاسم في آخر خلافة الرشيد سنة تسعين ومئة، وقيل غير ذلك. مات سنة اثنتين وثلاثين بعد المثنين، وقيل غير ذلك. «خزانة الأدب» (٣٥٦/١).

(٢) هذه الزيادة من المطبوع، ولا يستقيم الكلام إلا بها.

(٣) سورة فصلت: ٤٢.

وقال له رجلٌ: إنك يا أبا سعيدٍ لا تَلْحَنُ! فقال: يا بنَ أخي! لقد سَبَّقتُ اللُّحْنَ.

وقيل له: ما المروءة؟ قال: ألا تطمع فتدك، ولا تسأل فتقل.
وكان يقول: إذا لم تكن حليماً، فتحلّم، وإذا لم تكن عالماً، فتعلم،
فقلما تشبه رجلٌ بقوم إلا كان منهم.

وكان يقول: أربعٌ من كُنَّ فيه كان كاملاً، ومن تعلقَ بواحدةٍ منهنَّ كان
من صالحِ قومه: دينٌ يُرشدُهُ، أو عقلٌ يُسدِّدُهُ، أو حسَبٌ يصونُهُ، أو حياءٌ
يوقِّرُهُ.

وكان يقول: إلى من يشكو المسلم إذا لم يشك لأخيه المسلم؟ ومن
ذا الذي يلزمه من نفسه مثل الذي يلزمه؟ إن المسلم مرآة أخيه المسلم،
يُصِرُّه عيبه، ويغفر له ذنبه. قد كان من قبلكم من السلفِ الصالح، يلتقى
الرجلُ الرجلَ فيقول: يا أخي! ما كلُّ ذنوبي أبصر، ولا كلُّ عُيوبي أعرف،
فإذا رأيتَ خيراً فمُرني، وإذا رأيتَ شراً فانهني، وقد كان عمرُ بنُ الخطاب
- رضي الله عنه - يقول: رَحِمَ اللهُ امرأً أهدي إلينا مساوينا، وكان أحدُهم
يقبلُ مؤعظةَ أخيه، فينتفعُ بها.

وكان يقول: المؤمنُ شعبةٌ من المؤمن، يحزن إذا حزن، ويفرح إذا
فرح.

وكان يقول: إنَّ لك من خليلِكَ نصيباً، فتخَيَّرِ الإخوانَ والأصحابَ،
وجانبِ الأمرِ الذي يُعابُ.

وكان يقول: ترفعوا عن بعضِ الأمر؛ فإن الرجلَ ليأكلُ الأكلةَ، ويدخلُ
المدخلَ، ويجلسُ المجلسَ بغيرِ قلبه، ويذهب دينه، وهو لا يشعر.

وقيل له: يا أبا سعيد! إن قوماً يحضرون مجلسك يحفظون عليك سقطات كلامك ليُعنتوك بذلك، فقال: يا ابن أخي! لا يكن في ذلك عليك شيء؛ فإني طمعتُ نفسي في دخول الجنان، ومجاورة الرحمن، ومرافقة الأنبياء عليهم السلام، ولم أطمعها في السلامة من الناس.

وكان يقول: مَنْ طلب العلم لله، لم يلبث أن يرى ذلك في خشوعه، وزهده، وتواضعه.

وكان يقول: احرصوا على حضور الجنائز؛ فإن فيها ثلاثة أجور: أجر لمن عزى، وأجر لمن صلى، وأجر لمن وارى، وقد روي: «أن من تبع جنازة توارى غفر له سبعون مؤبقة»^(١).

وقيل: لما توفيت النوار زوجة الفرزدق، حضر جنازتها وجوه أهل البصرة، وحضر الحسن، فسأيره الفرزدق؛ وقال له: أتدري ما يقول الناس يا أبا سعيد؟ قال: وما يقولون؟ قال: يقولون: حضر هذا القبر خير الناس، وشر الناس، قال الحسن: ومن يريدون بذلك؟ قال: يزعمون أنك - رحمك الله - خير الناس، وأني شر الناس، فقال الحسن: لست بخيرهم، ولست بشرهم، ولكن ما أعددت لمثل هذا اليوم؟ فقال: شهادة أن لا إله إلا الله منذ ستين سنة، فلما دفنت النوار قال الفرزدق:

أخاف وراء القبر إن لم تُعافني أشد من القبر التهاباً وأضيقتا
إذا قادني يوم القيامة قائدٌ عنيفٌ وسواقٌ يسوق الفرزدقا

(١) لم أجده بهذا اللفظ. وقد ورد عند البخاري ومسلم بما يقاربه عن أبي هريرة: قال: قال رسول الله ﷺ: «من شهد الجنازة حتى يصلى عليها فله قيراط، ومن شهدها حتى تدفن فله قيراطان». قيل: وما القيراطان؟ قال: «مثل الجبلين العظيمين».

لقد خاب من أولادِ آدمَ مَنْ مشى إلى النارِ مَغْلُوبَ القِلَادَةِ أَرْوَاقاً
فبكى الحَسَنُ حتى انْتَحَبَ، وقال: إِنَّ مِنَ الشُّعْرِ لِحِكْمَةً^(١)، ثم قال:
يَرْحَمُكَ اللهُ أبا فراس! اعملْ لمثلِ اليومِ إن كنتَ ذا نَظَرٍ صَحيحٍ؛ فإنك
تَقْدَمُ على جَوَادِ عَدَلٍ، وكانَ قد، ثم افترقا، ومات الفرزدق، فَرُئِيَ في
النومِ وهو يقولُ: رُحِمْتُ بِيَوْمِي معَ الحَسَنِ.

وكان الحَسَنُ يقولُ: أَيُّهَا النَّاسُ! إِيَّاكُمْ والتسويفُ؛ فَإِنِّي سَمِعْتُ بعضَ
الصالحينَ يقولُ: نحنُ لا نريدُ أن نموتَ حتى نتوبَ، ثم لا نتوبُ حتى
نموتَ.

وكان يقولُ: في الطعامِ اثنتا عشرةَ خَصْلَةً: أربعُ فَرِيضَةٍ، وأربعُ سُنَّةٍ،
وأربعُ أَدَبٍ.

أما الفَرِيضَةُ: فالتسميةُ، واستطابَةُ الأَصْلِ، والرِّضَا بالمَوْجُودِ،
والشُّكْرُ على النِّعْمَةِ.

وأما السُّنَّةُ: فالجلوسُ على الرَّجْلِ اليُمْنِي، والأكلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْ
الْأَكْلِ، وتناولُ الطعامِ بثلاثةِ أَصَابِعِ اليَدِ اليُمْنِي، ولَعَقُ الأَصَابِعِ.
وأما الأَدَبُ: فغسلُ اليَدِ قَبْلَ الطعامِ وبعْدَهُ، وتصغيرُ اللُّقْمِ، وإجادةُ
المَضْغِ، وصَرْفُ البَصَرِ عن وُجُوهِ الأَكْلِينَ.

وقيل: جلسَ يوماً، فأتته امرأةٌ لم ترَ الناسُ مثلَها، فقالت: يا أبا
سعيدٍ! أيجوزُ للرجلِ أن يتزوَّجَ من النساءِ أربعاً؟ قال: نعم، فقالت: فهل
يجوزُ مثلُ ذلكَ للنساءِ؟ قال: لا، قالت: قلمَ؟ قال: لأنَّ اللهَ - عزَّ وجلَّ -

(١) وهو من حديث أبي بن كعب يرفعه، رواه البخاري في الأدب، باب: ما يجوز في
الشعر والرجز... (١٠/٥٣٧).

أَحَلَّ ذَلِكَ لِلرِّجَالِ، وَحَرَّمَهُ عَلَى النِّسَاءِ، فَقَالَتْ: بَعِيثُكَ يَا أَبَا سَعِيدٍ! لَا تُفْتِ بِذَلِكَ أَزْوَاجَ النِّسَاءِ، ثُمَّ انصَرَفَتْ، وَأَتْبَعَهَا الْحَسَنُ بِصِرِّهِ، وَقَالَ: مَا عَلَى مَنْ مَلَكَ هَذِهِ إِلَّا يَرَى غَيْرَهَا. قِيلَ: وَمَا رُئِيَ الْحَسَنُ قَبْلَهَا وَلَا بَعْدَهَا مَالٌ إِلَى شَيْءٍ مِنَ الدُّنْيَا وَلَا عَرَّجَ عَلَيْهِ.

وقيل: كَانَ لِرَجُلٍ مِنَ الصَّالِحِينَ عِنْدَ رَجُلٍ وَدِيعَةٌ، فَمَاتَ الْمُودِعُ فَجَاءَ، فَسَأَلَ صَاحِبَهَا عَنْهَا، فَقَالَ وَرَثَةُ الْمَيْتِ: مَا نَعْلَمُ لَهَا مَوْضِعًا، فَجَاءَ الرَّجُلُ إِلَى الْحَسَنِ فَأَخْبَرَهُ، فَقَالَ لَهُ: إِئْتِ زَمْزَمَ فَتَوَضَّأْ وَصَلِّ مُخْلِصًا، ثُمَّ ادْعُ بِاسْمِ صَاحِبِكَ الَّذِي أَوْدَعْتَهُ، فَإِنْ أَجَابَكَ، فَسَلُهُ عَنْ أَمَانَتِكَ الَّتِي أَوْدَعْتَهُ، فَفَعَلَ، وَلَمْ يَجِبْهُ أَحَدٌ، فَاتَى الْحَسَنَ فَأَخْبَرَهُ، فَقَالَ لَهُ: إِئْتِ الْيَمَنَ لَقَفْتُ عِنْدَ وَادِي بَرَهَوْتِ، وَادْعُ صَاحِبَكَ بِاسْمِهِ، فَإِذَا أَجَابَكَ فَسَلُهُ، فَاتَى الْيَمَنَ، وَفَعَلَ مَا أَمَرَهُ الْحَسَنُ بِهِ، فَأَجَابَهُ الرَّجُلُ، فَسَأَلَهُ عَنْ أَمَانَتِهِ، فَعَرَّفَهُ مَكَانَهَا، ثُمَّ قَالَ السَّائِلُ: يَا أَخِي! أَلَمْ تَكُ رَجُلًا صَالِحًا، فَمَا الَّذِي دَهَكَ حَتَّى أَلْقَيْتَ حَيْثُ أَنْتَ؟ فَقَالَ: كُنْتُ قَاطِعًا لِلرَّحِمِ، نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ سُوءِ الْقَضَاءِ^(١).

وكان الحسن يقول: جَهْدُ الْبَلَاءِ أَرْبَعَةٌ: كَثْرَةُ الْعِيَالِ، وَقِلَّةُ الْمَالِ، وَجَارُ السُّوءِ فِي دَارِ الْمَقَامِ، وَزَوْجَةٌ تَجَوَّرُ.

وكان يقول: أَعَزُّ الْأَشْيَاءِ: دَرَاهِمٌ حَلَالٌ، وَأَخْ فِي اللَّهِ إِنْ شَاوَرْتَهُ فِي دُنْيَاكَ وَجَدْتَهُ مَتِينَ الرَّأْيِ، وَإِنْ شَاوَرْتَهُ فِي دِينِكَ وَجَدْتَهُ بَصِيرًا بِهِ.

(١) إن نسبة هذه الحكاية إلى الحسن البصري لا تصح؛ فإن المقرر في الشريعة أن الإنسان ينقطع عن الدنيا بعد موته، وليس لأحد أن يعتقد أن الأموات ينفعون أو يضرّون، أما أثر أعمالهم فينتفع بها بعد موتهم، قال تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ [فاطر: ٢٢].

وكان يقولُ: يكونُ الرجلُ عالمًا، ولا يكونُ عابدًا، ويكونُ عابدًا، ولا يكونُ عاقلًا، ولقد كانَ مسلمٌ بنُ يسارٍ^(١) عابدًا عالمًا عاقلًا.

وكان يقولُ: لله دَرُّ بكرِ بنِ عبدِ الله، لقد سمعتهُ يأمرُ بالحلم، ويحثُّ على العفو، ويقول: أيتها الناسُ! أطفئوا نارَ الغضبِ بذكرِ نارِ جهنم؛ فقد كان أبو الدرداءِ يقولُ: أقربُ ما يكونُ العبدُ من غضبِ الله إذا غضبَ.

وكان الحسنُ يقولُ: مَنْ تَسَرَّبَلَ العقلَ، أَمِنَ مِنَ الْهَلَكَةِ.

وكان يقولُ: الْمَغْبُوتُ مَنْ غَبِنَ عقلَهُ.

وكان يقولُ: إِصْحَبِ النَّاسَ بِمَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ، فَإِنَّ الثَّوَاءَ^(٢) بَيْنَهُمْ قَلِيلٌ.

قال يونسُ بنُ حبيبٍ: سمعتُ الحسنَ البصريَّ - رحمه الله - يقولُ: ائنان لا يصطحبان أبدأ: القناعةُ والحسدُ، وائنان لا يفترقان أبدأ: الحرصُ والحسدُ.

وكان يقولُ: يسودُّ الرجلُ بعقله وبخِيائِهِ وحِلْمِهِ.

وكان يقولُ: لا تَأْتِ إِلَّا مَنْ تَأْمَلُ نَائِلَهُ، أَوْ تَخَافُ سَطْوَتَهُ، أَوْ تَرْجُو بَرَكَتَهُ دُعَائِهِ، أَوْ تَقْتَبِسُ مِنْ عِلْمِهِ.



(١) مسلم بن يسار أبو عبد الله البصري مولى بني أمية، وقيل: مولى بني تميم من موالى طلحة - رضي الله عنه -، وكانت وفاته سنة مئة. وقيل: سنة إحدى ومئة. «سير أعلام النبلاء» (٤/٥١٠).

(٢) الثواء: طول المقام.

الفصل الثالث

فيما أورده من الحكيم والمواعظ مختصراً
على جهة البلاغة والإيجاز

سمع الحسنُ رجلاً يقولُ: اللَّهُمَّ أَهْلِكَ الْفُجَّارَ، فقالَ: إذا تستوحشُ
الطريقَ، وَيَقِلُّ الْمُتَصَرِّفُونَ.

وكان يقولُ: إن هذا الدينَ قَوِيٌّ، وإنَّ الحقَّ ثَقِيلٌ، وإنَّ الإنسانَ
ضَعِيفٌ، فَلْيَأْخُذْ أَحَدُكُمْ مَا يُطِيقُ؛ فَإِنَّ العَبْدَ إِذَا كَلَّفَ نَفْسَهُ مِنَ العَمَلِ فَوْقَ
طَاقَتِهَا، خَافَ عَلَيْهَا السَّامَةَ وَالتَّرْكَ.

وكان يقولُ: المَرَضُ زَكَاةُ البَدَنِ، كما أَنَّ الصَّدَقَةَ زَكَاةُ المَالِ، فَكُلُّ
جَسْمٍ لَا يَشْتَكِي كَمَثَلِ مَالٍ لَا يُزَكَّى.

وكان يقولُ: أَفْضَلُ العَمَلِ الفِكرَةُ وَالعُورَعُ، فَمَنْ كَانَتْ حَيَاتُهُ كَذَلِكَ،
نَجَا، وَإِلَّا، فَلْيَحْتَسِبْ حَيَاتَهُ.

وكان يقولُ: الفِكرَةُ مَرَاةٌ تُرِيكَ حَسَنَتَكَ مِنْ سَيِّئَتِكَ، وَمَنْ اعْتَمَدَ عَلَيْهَا
أَفْلَحَ، وَمَنْ أَغْفَلَهَا أَفْضَحَ.

وقال له رجلٌ يوماً: يا أبا سعيدٍ! كُنْتَ حَدَّثْتَنِي بِحَدِيثٍ فَنَسِيتُهُ، فقالَ
الحَسَنُ: لَوْلَا النِّسيانُ، لَكُنْتُ الفَقِيهَاءُ.

وقال أبان^(١) : دخلتُ على الحسنِ المسجدَ، فقلتُ : هل صَلَّيتَ - رَحِمَكَ اللهُ؟ - فقالَ : لا ! قلتُ : فإنَّ أهلَ السُّوقِ قَدْ صَلَّوْا، فقالَ : وَمَنْ يأخذُ عن أهلِ السُّوقِ دينَهُ؟! إن نَفَقَتِ سِلْعَتُهُمْ أَخْرُوا الصَّلَاةَ، وإن كَسَدَتْ قَدَّمُوهَا.

وكان يقولُ : احذِرْ ثلاثةَ لا تُمَكِّنُ الشَّيْطَانَ فِيهَا مِنْ نَفْسِكَ : لا تَخْلُونَ بِامْرَأَةٍ ولو قُلْتَ : أُعَلِّمُهَا الْقُرْآنَ، ولا تَدْخُلْ على السُّلْطَانِ ولو قُلْتَ : امرؤُ بالمَعْرُوفِ وأنهاهُ عن المُنْكَرِ، ولا تَجْلِسْ إلى صَاحِبِ بِدْعَةٍ؛ فَإِنَّهُ يُمْرِضُ قَلْبَكَ، وَيُفْسِدَ عَلَيْكَ دِينَكَ.

وكان يقولُ : تَفَقَّدِ الحَلَاوَةَ في ثلاثةَ : في الصَّلَاةِ، والقِرَاءَةِ، والذُّكْرِ، فإنَّ وَجَدْتَ ذَلِكَ، فامْضِ وَأَبْشِرْ، وإلَّا فاعْلَمْ أن بَابَكَ مَغْلَقٌ، فعالِجُ فَتْحِهِ.

وكان يقولُ : لولا ثلاثةُ ما طَاطَأَ ابنُ آدَمَ رَأْسُهُ : الموتُ، والمَرَضُ، والفَقْرُ، وإنَّه بعدَ ذلك لَوَثَّابٌ.

وكان يقولُ : أَيُّهَا النَّاسُ! إِنَّا وَاللَّهِ ما خُلِقْنَا لِلْمَنَاءِ، وَلَكِنَّا خُلِقْنَا لِلْبَقَاءِ، وَإِنَّمَا نُنْقَلُ مِنْ دَارٍ إِلَى دَارٍ.

نظم ذلك أبو العلاء المَعْرِيُّ^(٢) فقال :

خُلِقَ النَّاسُ لِلْبَقَاءِ فَظَلَّتْ^(٣) أُمَّةٌ يَحْسِبُونَهُمْ لِلنَّفَادِ

(١) هو أبان بن يزيد العطار الحافظ الإمام أبو زيد البصري، من كبار علماء الحديث، روى عن الحسن البصري. «سير أعلام النبلاء» (٤٣١/٧).

(٢) أبو العلاء المعري، أحمد بن عبد الله بن سليمان بن عمر بن سليمان القحطاني، ثم التنوخي، شاعر مشهور، لغوي، ولد سنة ثلاث وستين وثلاث مئة، وفقد بصره صغيراً، مات سنة تسع وأربعين وأربع مئة، وعاش ستاً وثمانين سنة.

(٣) هكذا في المخطوط. والصواب : «فَضَلَّتْ».

إِنَّمَا يُنْقَلُونَ مِنْ دَارِ أَعْمَاءٍ إِلَى دَارِ شِقْوَةٍ أَوْ رَشَادٍ

وكان يقول: من وَقَّرَ صَاحِبَ بِدْعَةٍ، فَقَدْ سَعَى فِي هَدْمِ الْإِسْلَامِ.

وكان يقول: رُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: «إِذَا مَدَحَ الْفَاسِقُ، غَضِبَ اللَّهُ تَعَالَى»^(١).

وكان يقول: احذروا العابِدَ الْجَاهِلَ، وَالْعَالِمَ الْفَاسِقَ؛ فَإِنَّ فِيهِمَا فِتْنَةً لِكُلِّ مَفْتُونٍ.

وكان يقول: ابْنَ آدَمَ! لَا يَغُرَّتْكَ أَنْ تَقُولَ: الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ؛ فَإِنَّكَ لَنْ تَلْحَقَ الْأَبْرَارَ إِلَّا بِأَعْمَالِهِمْ، وَإِنَّ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى لَيُحِبُّونَ أَنْبِيَاءَهُمْ، وَلَا وَاللَّهِ مَا يُحْشَرُونَ مَعَهُمْ، وَلَا يَدْخُلُونَ فِي زُمْرَتِهِمْ، وَإِنَّهُمْ لَخَصَبُ جَهَنَّمَ هُمْ لَهَا وَارِدُونَ.

وكان يقول: لَا تَزَالُ هَذِهِ الْأُمَّةُ بِخَيْرٍ، وَلَا تَزَالُ فِي كَنْفِ اللَّهِ وَسْطَرِهِ، وَتَحْتَ جَنَاحِ ظِلِّهِ مَا لَمْ يَرْفُقْ خِيَارُهُمْ بِشَرَارِهِمْ، وَيُعَظَّمْ أَبْرَارُهُمْ فَجَارَهُمْ، وَيَمِلْ قُرَاؤُهُمْ إِلَى أَمْرَائِهِمْ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ، رُفِعَتْ يَدُ اللَّهِ عَنْهُمْ، وَسُلِّطَ عَلَيْهِمُ الْجَبَابِرَةُ فَسَامُوهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ، وَلِعَذَابِ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَأَبْقَى، وَقُذِفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبُ.

وقيل: رأى الحسنُ نعيمَ بنِ رضوانٍ يمشي مشيةَ المُتَكَبِّرِ، فقال:

(١) رواه الخطيب في «تاريخه» (٢٩٨/٧)، (٤٢٨/٨). من طريق سابق بن عبد الله عن أبي خلف خادم أنس بن مالك مرفوعاً: «إِذَا مَدَحَ الْفَاسِقُ اهْتَزَّ الْعَرْشُ، وَغَضِبَ لَهُ الرَّبُّ تَعَالَى».

وأبو خلف قيل: اسمه حازمة، كذبه يحيى بن معين، وقال أبو حاتم: مُنْكَرُ الْحَدِيثِ. انظر: «مِيزَانُ الْإِعْتِدَالِ» (٥٢١/٤)، وقد أشار الألباني إلى نكارة الحديث. انظر: «السلسلة الضعيفة» (رقم ٥٩٥).

انظروا إلى هذا ليس فيه عضو إلا والله تعالى فيه نعمة، وللشيطان لعنة.
وكان يقول: يحاسبُ اللهُ سبحانه المؤمنين يوم القيامة بالمنة والفضل،
ويُعذبُ الكافرين بالحجة والعدل.

وكان يقول: يا عجباً لألسنة تصفُ، وقلوب تعرفُ، وأعمال تخالفُ.
وكان يقول: مَنْ دخلَ مداخِلَ الثَّهَمَةِ، لم يكن له أجرُ الغيبةِ.
ورأى شيخاً يعبثُ بالحصى ويقول: اللهمَّ زوجني الحورَ العينَ! فقال:
يسألُ الحورَ العينَ، ويلعبُ كما يلعبُ المجانينُ.

وكان يقول: مَنْ أحبَّ أن يعلمَ ما هو فيه؟ فليعرض عملهُ على
القرآنِ، ليتبينَ له الخسرانُ من الرُّجحانِ.

وكان يقول: رَحِمَ اللهُ عبداً عرضَ نفسه على كتابِ اللهِ، فإن وافقَ
أمرهُ، حمِدَ اللهُ، وسألهُ المزيدَ، وإن خالفَ، استعْتَبَ، ورجعَ مِنْ قَرِيبِ.
وكان يقول: يا عجباً لابنِ آدمَ! حافظاهُ على رأسِهِ، لسانُهُ قَلَمُهُما،
وريقُهُ مِدادُهُما، وهو بينَ ذلك يتكلمُ بما لا يعنيه.

وكان يقول: ابنَ آدمَ! تُحِبُّ أن تُذَكَرَ حسناتِكَ، وتَكْرَهُ أن تُذَكَرَ
سَيِّئاتِكَ، وتُواخِذُ غيرَكَ بالظنِّ، وأنتَ مُقيمٌ على اليقينِ، معَ عِلْمِكَ بأنَّكَ
قد وُكِّلَ بِكَ مَلَكَانِ يَحْفَظانِ عَلَيْكَ قولَكَ وعَمَلَكَ.

ابنَ آدمَ! إنَّ اللَّيْبَ لا يَمْنَعُهُ جِدُّ اللَّيْلِ مِنْ جِدِّ النَّهَارِ، ولا جِدُّ النَّهَارِ
مِنْ جِدِّ اللَّيْلِ، قد لَازَمَ الخوفُ قلبَهُ، إلى أن يَرْحَمَهُ رَبُّهُ.

وكان يقول: إِيَّاكُمْ وَالْمَدْحَ؛ فَإِنَّهُ الذَّبْحُ.
ولقد رُوِيَ أَنَّ رَجُلًا مَدِحَ بِحَضْرَةِ النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ:

«قَطَعْتُمْ ظَهْرَهُ، لو سَمِعَهَا ما أَفْلَحَ بَعْدَها أَبداً»^(١).

وكان يقول: ما أَنْصَفَ رَبُّهُ عَبْدًا اتَّهَمَهُ في نَفْسِهِ، واسْتَبْطَأَهُ في رِزْقِهِ.

وكان يقول: لا شيءَ أَوْلَى بِأَنْ تُقَيِّدَهُ من لسانِكَ، ولا شيءَ أَوْلَى بِالْأَنْ تُقَبِّلَهُ مِنْ هِوَاكَ.

وكان يقول: ما الدَّابَّةُ الجَمُوحُ بِأَحْوَجَ إلى اللِّجامِ المُمَسِّكِ مِنْ نَفْسِكَ.

وكان يقول: ابنُ آدمَ! إِنَّكَ لستَ بِسابقٍ أَجَلَكَ، ولا بِمَغْلُوبٍ على رِزْقِكَ، ولا بِمَرزُوقٍ ما ليسَ لَكَ، فَلِمَ تَكْذَحُ؟ وعلامَ تَقْتُلُ نَفْسَكَ؟

ولقيَ أعرابيُّ الحَسَنَ، فقال: أَصْلَحَكَ اللهُ! أَعَلِمَنِي دِيناً مَبْسُوطاً، لا ذاهِباً شَطُوطاً، ولا هابِطاً هُبُوطاً، فقال الحَسَنُ: يا ابنَ أخي! لئنُ قلتَ ذاكَ، لَقَدْ أَحْسَنْتَ؛ إِنَّ خَيْرَ الأُمُورِ [الأُوساطُها].

وكان يقول: مَنْ لَمْ يُجَرِّبِ الأُمُورَ^(٢) خُدِعَ، وَمَنْ صارَعَ الحَقَّ صُرِعَ.

وكان يقول: ابنُ آدمَ بينَ ثلاثِ أشياء: بليَّةٌ نازِلَةٌ، وِنِعْمَةٌ زائِلَةٌ، ومَنيَّةٌ قاتِلَةٌ.

وقال: ابنُ آدمَ غَرَضٌ لِلبَلايا، والرِّزايا، والمَنايا. ثم يَنتَجِبُ وَيَبْكي ويقول: ﴿ رَبَّنَا ما آتانا في الدُّنيا حَسَنَةً وَفي الآخِرَةِ حَسَنَةٌ وَقَنا عَذابَ النَّارِ ﴾^(٣).

(١) رواه البخاري في «الأدب». باب: ما يكره من التمدح (٤٧٦/١٠)، ومسلم في «الزهد»، باب: النهي عن المدح... (٣٠٠١/٤) من طرق عن أبي موسى قال: سمع النبي - ﷺ - رجلاً يُثني على رجلٍ ويُطريه في المدح فقال: «أهلكتم - أو قطعتم - ظهر الرجل!» واللفظ للبخاري.

(٢) ساقط من المخطوط، وقد أثبت ما في المطبوع لاستقامة الكلام به.

(٣) سورة البقرة: ٢٠١.

ولما بلغ الحسن مَصْرَعُ الحُسَيْنِ بنِ عليٍّ - رضي الله عنهما - انتحَبَ وتأوَّه، وقال: واحسرتاهُ ماذا لقيت هذه الأُمَّة، قتل ابن دَعِيَّها ابنَ نَبِيِّها! اللَّهُمَّ كُنْ لَهُ بِالْمِرْصَادِ ﴿ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴾ (١).

وكان يقولُ: ابن آدم! قَدِّم ما شئتَ من عملٍ صالحٍ أو غيرِه؛ فإنَّكَ قادمٌ عليه، وأخِّر ما شئتَ أن تُؤخَّرَ؛ فإنَّكَ راجِعٌ إليه.

وكان يقولُ: مَنْ أدركَ آخرَ الزمانِ، فَلْيَكُنْ حِلْساً من أحلاسِ بَيْتِهِ (٢).

وكان يقولُ: ما لي أسمعُ حَسيساً، ولا أرى أنيساً؟!

وقيل: إنه خرجَ خارجيًّا بالجزيرة (٣)، فقال: بِرَأْيِ مُنْكَرٍ فَأُنْكَرُهُ، وأرادُ تغييرَهُ، فوقعَ فيما هوَ أشدُّ وأنكرُ منه.

وكان يقولُ: مَنْ ذَمَّ نَفْسَهُ في المَلَأِ، فَقَدْ مَدَحَها، وبِئْسَ ما صَنَعَ.

وكان يقولُ: لولا البُدلاءُ، لَحُسِفَتِ الأرضُ، ولولا الصالحون، لَهَلَكَتِ الأُمَّةُ، ولولا العلماءُ لكانَ الناسُ كالبهائم، ولولا السلطانُ لأكلَ الناسُ بعضهم بعضاً، ولولا الحَمْقى لَحَرِبَتِ الدنيا، ولولا الرِيحُ لَأَنَّسَ ما بينَ السماءِ والأرضِ.

وكان يقولُ: ثلاثة من قواصمِ الظُّهرِ: إمامٌ تُطِيعُهُ فَيُضِلُّكَ، وجارٌ إن عَلِمَ خيراً سَتَرَهُ، وإن عَلِمَ شراً نَشَرَهُ، وفَقْرٌ ظاهِرٌ لا يَجِدُ صاحِبُهُ مُتَلَذِّذاً.

وقال العلاءُ بنُ زيادٍ: قلتُ للحسنِ: رجلانِ تَفَرَّغَ أحدهُما للعبادةِ، واشتغلَ الآخرُ بالسَّعْيِ على عِيالِهِ، أيُّهُما أفضلُ؟ فقالَ الحسنُ: ما اعتدلَ

(١) سورة الشعراء: ٢٢٧.

(٢) أي: لا يبرح مكانه. والجِلسُ: كساءٌ يبسطُ تحت حُرِّ الثيابِ «مختارُ الصحاح».

(٣) هكذا في المخطوط. وفي المطبوع: (بالحيرة).

الرجلان، الذي تفرغ للعبادة أفضل وأحسن صنعا.
وكان يقول: إذا رأيت في ولدك ما تكره، فاستعيت ربك، وتب إليه؛
فإنما ذلك شيء أردت به أنت.
قوله - رحمه الله -: فاستعيت ربك؛ أي: راجعه وتب إليه، واستغفره
ذُنُوبَكَ.

وكان يقول: إذا أظهر الناس العلم، وضيعوا العمل، وتحابوا
بالألسن، وتباغضوا بالقلوب، وتقاطعوا في الأرحام، لعنهم الله - جل
ثناؤه -، فأصمهم وأعمى أبصارهم.

وسأله رجل عن الغيبة^(١) ما هي، وما يوجبها؟ فقال: هي - والله -
عقوبة الله - عز وجل - يجلها بالعباد إذا عصوه، وتأخروا عن طاعته.

وقيل له: يا أبا سعيد! من أين أتيت على الخلق؟

قال: من قلة الرضا عن الله - عز وجل -.

فقيل له: فمن أين دخل عليهم قلة الرضا عن الله - عز وجل -؟

فقال: من جهلهم بالله، وقلة المعرفة به.

وكان يقول: هجران الأحمق قرينة إلى الله، ومواصلة العاقل إقامة
لدين الله، وإكرام المؤمن خدمة لله، ومصارمة الفاسق عون من الله.

وكان يقول: لا تكن شاة الراعي أعقل منك؛ تزجرها الصيحة،
وتطردها الإشارة.

وكان يقول: سمعت بكر بن عبد الله المزني يقول: اجتهدوا في

(١) هكذا في الأصل: (الغيبة)، ولعل الصواب: (الفتنة) والله أعلم.

العمل، فإن قَصَرَ بكم ضَعُفْتُمْ، فَكُفُّوا عَنِ الْمَعَاصِي .

وكان يقولُ: رُوِيَ عن رسولِ الله ﷺ أنه قال: «لَمْ يُؤْتِ النَّاسُ فِي الدُّنْيَا خَيْرًا مِنْ الْيَقِينِ وَالْعَافِيَةِ، فَاسْأَلُوهُمَا اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ»^(١)، ثم يقولُ الحسنُ: صدقَ رسولُ الله ﷺ. بِالْيَقِينِ طُلِبَتِ الْجَنَّةُ، وبِالْيَقِينِ هُرِبَ مِنَ النَّارِ، وبِالْيَقِينِ صُبِرَ عَلَى الْمَكْرُوهِ، وبِالْيَقِينِ أُدِّيتِ الْفِرَاقُ، وفي الْمَعَافَاةِ خَيْرٌ كَثِيرٌ.

وكان يقولُ: الْمُؤْمِنُ لَا يَلْهُو حَتَّى يَغْفَلَ، فَإِذَا تَفَكَّرَ حَزِنَ.

وكان يقولُ: مَنْ لَمْ تَنْهَهُ صَلَاتُهُ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ، لَمْ تَزِدْهُ صَلَاتُهُ مِنْ اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - إِلَّا بُعْدًا، وَلَمْ تَزِدْهُ عِنْدَهُ - جَلَّ ثَنَاؤُهُ - إِلَّا مَقْتًا.

وكان يقولُ: الْمُرَاعِي لِعَمَلِهِ كَالْمُدَافِعِ فِي الْحَرْبِ عَنِ نَفْسِهِ، بَلْ مُرَاعَاةُ الْعَمَلِ أَفْضَلُ وَأَكْثَرُ أَجْرًا.

وكان يقولُ: ابْنَ آدَمَ! تَسْتَحِلُّ الْمَحَارِمَ، وَتَأْتِي الْجَرَائِمَ، وَتَرْكِبُ الْعِظَائِمَ، وَتَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ الْأَمَانِي! سَتَعْلَمُ - أَيُّ فَاجِرٍ - حِينَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ، إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ.

وكان يقولُ: تَرَكُ الْخَطِيئَةَ أَهْوَنُ مِنْ مُعَالَجَةِ التَّوْبَةِ، فَسَمِعَ ذَلِكَ مُحَمَّدُ بْنُ وَاسِعٍ^(٢)، فَقَالَ: رَحِمَ اللَّهُ الْحَسَنَ، صَدَقَ - وَاللَّهِ - لَوْ وَافَقَ قَلْبًا

(١) رواه الترمذي في الدعوات: برقم (٣٥٥٨)، وقال: هذا حديث غريب من هذا الوجه. وأحمد (٣/١، ٤، ٨، ١١) بألفاظ مختلفة. كلاهما عن أبي بكر - رضي الله عنه - .

(٢) محمد بن واسع بن جابر بن الأحنس، أبو بكر، ويقال: أبو عبد الله البصري: أحد الأعلام، توفي سنة ثلاث وعشرين ومئة، وقيل غير ذلك. «سير أعلام النبلاء» (١١٩/٦).

للطاعة فارغاً، وعقلاً من غلبة الشهوة سالماً.

وكان يقول: ابن آدم! مالك وللشر، وهذا الخير صاف! ابن آدم! اتق الكبائر؛ فإنك لا تزال بخير ما لم تُصب كبيرة تُغيّر عليك قلبك، وتهدم صالح عمّلك.

وكان يقول: لله درُّ أهل الحق، كانت درّة عمر - رضي الله عنه - أهيب من سيف الحجاج.

وقيل: يا أبا سعيد! من أشدّ الناس صراحاً يوم القيامة؟ فقال: رجل سنّ سنة ضلالة، فاتبع عليها، ورجل يسيء الملكة، ورجل رزق نعمة، فاستعان بها على معصية الله - عز وجل -.

وكان يقول: المؤمن يلقاه الزمان بعد الزمان بأمر واحد، ووجه واحد، ونصيحة واحدة، وإنما يتبدّل المنافق؛ ليستأكل كل قوم، ويسعى بكل ربح.

وكان يقول: المؤمن صدق قوله فعله، وسرّه علانيته، ومشهده مغيبه. والمنافق كذب قوله فعله، وسرّه علانيته، ومشهده مغيبه.

وقال له رجل: أيحسد المؤمن؟ فقال: لا أبا لك! من أنساك إخوة يوسف، وما فعل بهم الحسد؟

وكان يقول: ثلاثة لا غيبة فيهم: الفاسق المعلن بفسقه؛ أن يُذكر ذلك منه، وصاحب البدعة؛ أن يُذكر بدعته، والإمام الجائر؛ أن يُذكر بجوره.

قال حميد خادم الحسن: قلت له يوماً: يا أبا سعيد! - أصلحك الله - أما ترى ما الناس فيه من الاختلاط؟

قال: يا أبا الخير! أصلح أمر الناس أربعة، وأفسد لهم اثنان، فأما الذين أصلحوا أمر الناس، فعمر بن الخطاب - رضي الله عنه - يوم السقيفة، حين قالت الأنصار: منا أمير ومنكم أمير، فقام عمر فقال: أستم تعلمون أن رسول الله ﷺ قال: «الأئمة من قريش»؟ قالوا: بلى! قال: أولستم تعلمون أنه قدم في الصلاة أبا بكر؟ قالوا: بلى، قال: فأئكم يتقدم على أبي بكر؟ قالوا: لا أحد، فسلمت الأنصار، ولولا فيلة عمر لتنازع الناس الخلافة، وادعتها كل طائفة إلى يوم القيامة.

ثم الذي فعله أبو بكر الصديق - رضي الله عنه - حين شاور الناس في شأن أهل الردة، فكلهم أشار عليه بأن يقبل منهم ما أطاعوا به من الصلاة، ويدع لهم الزكاة، فقال - رضي الله عنه -: والله لو منعوني عقلاً كانوا يعطونه رسول الله ﷺ لجاهدتهم عليه، ولولا الذي فعله أبو بكر - رضي الله عنه - لألحد الناس في الزكاة إلى يوم القيامة.

ثم الذي فعله عثمان - رضي الله عنه - حين جمع الناس على مصحف، جمع القرآن فيه، وكانوا يقرؤونه على حروف، فيقول قوم: قراءتنا أفضل من قراءتكم، حتى كاد بعضهم يكفر بعضاً، ولولا الذي فعله عثمان - رضي الله عنه - لألحد الناس في القرآن إلى يوم القيامة.

ثم الذي فعله علي - رضي الله عنه - حين قاتل أهل البصرة، فلما فرغ القتال، قسّم بين أصحابه ما حوى العسكر من أموالهم، فقالوا: يا أمير المؤمنين! هلاً تقسّم علينا أبنائهم ونسائهم؟ فأنكر عليهم ما طلبوه من ذلك، وقال: فمن يأخذ أم المؤمنين في سهمه؟ إنكاراً لما ذهبوا إليه، وطالبوه به.

ثم قال: أرايتم هؤلاء يكن [الموالي هل] ^(١) أبناؤهن ورجالهن، أتلزموهن العدة، فيرثن الربع، والثلث، والسدس؟ فقالوا: نعم! لو كن إماء، لما كان لهن ميراث، ولا عليهن عدة، فعلموا صواب ما ذهب إليه، وسلموا لأمره، ورضوا بحكمه، ولولا ما فعله علي - رضوان الله عليه - ما علم الناس كيف تكون مقاتلة أهل القبلة.

وأما الأميران اللذان أفسدا أمر الناس:

فما فعله عمرو بن العاص، من رفعه المصاحف، وقوله ما قال حتى حكمت الخوارج، فلا يزال هذا التحكيم إلى يوم القيامة، وقد كان علي - رضي الله عنه - فهم ما أراد عمرو، وقال: كلمة حتى أريد بها باطل.

والأمر الثاني: ما فعله المغيرة بن شعبه، حين كتب إليه معاوية - رحمه الله -: اقدم إلي مغيرة! لأعلمك، فتأخر عنه أياماً، ثم ورد عليه، فقال معاوية: ما أبطأ بك؟ قال المغيرة: أمر بدأته كرهت أن آتي قبل إحصائه، قال: ماهو؟ قال: أخذت البيعة ليزيد على أهل الكوفة، قال: أو فعلت ذلك؟ قال: بلى! قال: فارجع إلى عمك وتمم ما بدأته، فلما خرج، قال له أصحابه: ما وراءك؟ قال: وضعت - والله - رجل معاوية لموزي، لا تزال فيه إلى يوم القيامة.

قال الحسن: فمن أجل ذلك بايع هؤلاء لأبنائهم، وصارت الخلافة نوارث، ولولا ذلك لكانت شورى، لا يليها إلا من اتفق على فضله، استحقاقه الإمامة إلى يوم القيامة.

وكان يقول: روي أن النبي ﷺ قال: «يأتي على الناس زمان، لا تنال

(١) هكذا في الأصل، ولعل الصواب [اللاتي قتل] والله أعلم.

المعيشة فيه إلا بركوب المعصية، فإذا كان ذلك الزمان قُبِحَ التزويجُ،
وحَلَّتِ العُزْبَةُ».

وكان يقولُ: لقد مضى بين أيديكم أقوامٌ، لو أنفقَ أحدهمَ عددَ
الحصى، لَخَشِيَ ألا يُقبلَ منه، ولا ينجو؛ لِعِظَمِ الأمرِ في نفسه.

وسئلَ عن عليٍّ - رضي اللهُ عنه - فقال: كان - والله - سَهْمًا صائبًا من
مَرَامِي اللهُ تعالى، وكان رَبَّانِيَّ هذه الأُمَّةِ، في ذُرْوَةِ فَضْلِهَا وشَرَفِهَا، كان ذا
قَرَابَةٍ قَرِيبَةٍ من رسولِ اللهِ ﷺ؛ أبا الحَسَنِ والحُسَيْنِ - رضي اللهُ عنهما -،
وزوجَ فاطمةَ الزهراءِ، لم يَكُنْ بالسَّرْوَقَةِ لِمَالِ اللهِ، ولا بالبرومة^(١) في
أمرِ اللهِ، ولا بالملوثة^(٢) في حَقِّ اللهِ، أعطى القرآنَ عزائمَهُ، وَعَلِمَ ما لَهُ فيه
وما عليه - رضي اللهُ تعالى عنه -.

* * *

(١) والبرمُ: الذي لا يدخل مع القوم في الميسر، والجمع أبرام. انظر: «لسان العرب»
(٤٣/١٢).

(٢) صيغة مبالغة من المثل، بمعنى: السام.

الفصل الرابع

في ذم الدنيا ونهيه عن التعلق بها

قال هشامُ بنُ حَسَّانَ: سمعتُ الحسنَ يقولُ: واللهِ ما أحدٌ منَ الناسِ بُسِطَ لَهُ في أمرٍ منَ أمورِ دُنياه، فلمْ يَخَفْ أنْ يكونَ ذلكَ مَكْرَأَ به، واستَدْرَجاً له، إلا نَقَصَ ذلكَ منَ عَمَلِهِ، ودينِهِ، وعقلِهِ، ولا أحدٌ أمسَكَ اللهُ الدُّنيا عنه، ولم يَرِ أنْ ذلكَ خيرٌ له، إلا نَقَصَ ذلكَ منَ عَمَلِهِ، وبيانَ العجزِ في رأيه.

وكان يقولُ: ما منَ مسلمٍ رُزِقَ يوماً بيومٍ، فلمْ يَعْلَمْ أنْ ذلكَ خيرٌ له، إلا كانَ عاجزاً الرأى.

وكان يقولُ: إنَّ اللهَ - عزَّ وجلَّ - لَيُعْطِي العبدَ منَ الدُّنيا؛ مَكْرَأَ به، ويمنعُه؛ نَظراً لَهُ.

وكان يقولُ: أدركتُ أقواماً كانتِ الدُّنيا أهونَ عندهم منَ الثَّرابِ الذي تمشونَ عليه.

وكان يقولُ: رَحِمَ اللهُ أقواماً كانتِ الدُّنيا عندهم وديعةً، حتى ردُّوها إلى مَنْ اتَّمَنَّهُمْ عليها، ثم راحوا خِفافاً غيرَ مُثْقَلِينَ، ولقد أدركتُ أقواماً كانتِ الدُّنيا تَعَرَّضُ لأحديهم، وإنه لَمَجْهُودٌ، فيتركُها مخافةً الساعةِ.

وكان يقولُ: واللهِ ما بلغتِ الدنيا ولا انتهتُ قَدْرُها إلى أن يُضَيِّعَ الرجلُ فيها حَسَبَهُ ودينَهُ.

وكان يقولُ: واللهِ ما عَجِبْتُ من شيءٍ كَعَجَبِي من رجلٍ لا يَحْسَبُ حُبَّ الدُّنيا من الكِبائِرِ؛ وإيْمُ اللهِ! إِنَّ حُبَّها لَمِنْ أَكْبَرِ الكِبائِرِ، وهل تشَعَّبَتِ الكِبائِرُ إلا من أَجلِها؟ وهل عُبِدَتِ الأَصْنامُ، وَعُصِيَ الرَّحْمَنُ، إلا لِحُبِّ الدُّنيا؟ فالعارِفُ لا يَجْزَعُ مِنْ ذُلِّها، ولا يَنافِسُ بِقُرْبِها، ولا يَأْسِي لِبُعْدِها.

وكان يقولُ: يُحْشِرُ النَّاسُ عُرَاةَ يَوْمِ القِيامَةِ، ما خَلا أَهْلَ الزَّهادَةِ في الدُّنيا.

وكان يقولُ: أَيُّها النَّاسُ! واللهِ ما أَعَزَّ هذا الدِّرْهَمَ أَحَدٌ إلا أَذَلَّهُ اللهُ تَعَالَى يَوْمَ القِيامَةِ؛ لَقَدْ ذُكِرَ أَنَّ إبليسَ، لما ضُرِبَ الدِّينارُ والدِرْهَمُ، أَعَزَّهُما، وجعلَهُما على رَأْسِهِ، وقال: مَنْ أَحَبَّكُما، فهو عِبي حَقًّا، أَصْرَفَهُ كَيْفَ أَشَاءُ.

وقال: إذا أَحَبَّ بَنو آدَمَ الدُّنيا، فما أُبالي ألا يَعْبُدوا صَنَمًا، ولا يَتَّخِذُوا إِلَهًا غيرَ اللهِ رَبًّا، حُبُّهُمُ الدُّنيا يُورِثُهُمُ المَهالِكُ.

وكان يقولُ: رأينا من أُعْطِيَ الدُّنيا بِعَمَلِ الآخِرَةِ، وما رأينا من أُعْطِيَ الآخِرَةَ بِعَمَلِ الدُّنيا.

وكان يقولُ: المؤمنُ لا يَصِفُو له في الدُّنيا عَيْشٌ.

وكان يقولُ: لَقَدْ رُويَ عَنِ المَسِيحِ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - قال: الدُّنيا لِإِبليسَ مَزْرَعَةٌ، والنَّاسُ لَه حَرَاثُونَ.

وكان يقولُ: مَنْ عَرَفَ رَبَّهُ، أَحَبَّهُ، وَأَثَرَ ما عِنْدَهُ، وَمَنْ عَرَفَ الدُّنيا وَغُرُورَها، زَهَدَ فيها.

وقيل له: يا أبا سعيد! هل نرى الله - عز وجل - في دار الدنيا؟ فقال: لا، قيل: فهل نراه في دار الآخرة؟ قال: نعم، قيل: وما الفرق بين ذلك؟ فقال: إن الدنيا فانية، وفان كل ما فيها، وإن الآخرة باقية، وباقي كل ما فيها، ومُحال أن يُرى الباقي بالفاني، والتقديم الأزلي بالمُحدث، فإذا كان يوم القيامة، خلق الله - عز وجل - لعباده أبصاراً باقية، يروون بها ربهم؛ تفضلاً عليهم، وإكراماً لهم.

وكان يقول: روي أن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - دخل على رسول الله ﷺ، وهو راقد على سرير مرمولٍ بالشريط، وقد أثر في جنبه أثرُ الحبل، فدمعت عيناه، فقال النبي - عليه السلام -: «ما لك يا ابن الخطاب؟»، فقال: ذكرت كسرى وقيصراً، وما هما فيه من المُلْك والنعم؛ ورأيتك وأنت رسولُ الله، وصفيته، ومُصطفاه، وحبيبه، تنام على سرير مرمولٍ بالشريط! فقال - عليه السلام -: «أما ترضى يا عمر أن يكون لهما الدنيا، ولنا الآخرة؟»، فقال: رضيتُ يا رسولَ الله، قال - عليه السلام -: «فاعلم يا عمر أن الأمر كذلك»، وقال - عليه السلام -: «إنما مثلي ومثل الدنيا كراكبٍ سافر في يوم صائفٍ، فرفعت له شجرة ذات ظلٍ ظليلٍ، فقال تحتها، ثم راح وتركها»^(١).

قال الحسن: ولقد كان رسولُ الله ﷺ يركبُ الحمار، ويلبسُ الصوف، ويلعقُ أصابعه، ويأكلُ على الأرض، ويقول - عليه السلام -:

(١) رواه البخاري مطولاً بمثله، في المظالم، باب: الغرفة والعلية المشرفة (١١٤/٥)، وفي النكاح، باب: موعظة الرجل ابنته لحال زوجها (٢٧٨/٩)، ومسلم في فضائل الصحابة، باب: من فضائل أصحاب الشجرة (٢٤٩٨/٤)، ورواه الترمذي في الزهد مختصراً، باب (٤٤)، برقم (٢٣٧٧)، وقال: هذا حديث حسن صحيح.

«إنما أنا عبدٌ آكلٌ كما يأكلُ العبدُ»^(١).

وكان يقول: لقد كانت فاكهةُ أصحابِ رسولِ اللهِ ﷺ التي يَسْتَظِرُّ فونها نُخْبِرَ البرَّ، فما بالُكم عبادَ اللهِ تَسْتَفْرِهونَ المَراكِبَ، وتَسْتَلِينونَ المَلايسَ، وتُلَوِّنونَ الأَطْبِخَةَ؟! ثم يقول: وَيَحْكُمُ! أما تَسْتَحونَ من طولِ ما لا تَسْتَحونَ؟! ألا تكونونَ كما كانَ سلفُكمُ الصالحُ؟!!

وكان يقول: مَنْ نَافَسَكَ في دينِكَ، فَنافِسْهُ، وَمَنْ نَافَسَكَ في دُنْيَاكَ، فَالِقِهَا في نَحْرِهِ.

وكان يقول: أَيُّهَا النَّاسُ! أَدْرَكْتُ أَقْوَاماً، وَصَحِبْتُ طَوَائِفَ، مَا كَانُوا يَفْرَحونَ بِشَيْءٍ مِنَ الدُّنْيَا أَقْبَلَ، وَلَا يَحْزَنونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْهَا أَذْبَرَ، وَلَهُي عِنْدَهُمْ أَهْوَنُ مِنَ التُّرَابِ الَّذِي تَطَّوْنَهُ بِأَرْجُلِكُمْ.

كان أحدهمُ يعيشُ دَهْرَهُ لَمْ يُجَدِّدْ لَهُ ثَوْبٌ، وَلَا نُصِبَ لَهُ قِدْرٌ عَلَى نَارٍ، وَلَا يُجْعَلُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الأَرْضِ سِتْرٌ، كَانُوا يَخَافونَ يَوْمًا تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ، وَتَعْمَى القُلُوبُ.

وكان يقول: ابْنَ آدَمَ! لَا تُعَلِّقْ قَلْبَكَ بِشَيْءٍ مِنَ الدُّنْيَا، تَعَلَّقُهَا شَرٌّ تُعَلِّقُ، اقْطَعْ عَنكَ حَبَائِلَهَا، وَأَغْلِقْ دُونَكَ أَبْوَابَهَا.

(١) رواه الإمام أحمد في «الزهد» (ص: ١١) من حديث عطاء بن أبي رباح، مرسلاً صحيحاً، ورواه البغوي في «شرح السنة» (٢٨٧/١١) من حديث عائشة، وفي سننه عبيد الله بن الوليد الوصافي، وهو ضعيف، ورواه ابن سعد (٣٨١/١) من طريق أبي معشر، عن سعيد المقبري، عنها، مرفوعاً، وفيه نجيح أبو معشر، وهو ضعيف، وأورده الهيثمي (١٩/٩.٨) من حديث عائشة، وقال: رواه أبو يعلى، وإسناده حسن، وقد أورده الألباني في «الصحيحة» برقم (٥٤٤)، وانظر: «صحيح الجامع» (٨-٧).

وليكن حَسْبُكَ - أيها المغرور - منها ما يُبَلِّغُكَ المَحَلَّ، وإياكَ أَنْ تَظُنَّ
أَنَّكَ تُبَاهِي يَوْمَ القِيَامَةِ بِمَالِكَ وولَدِكَ، هيهاتَ أَنْ يَنْفَعَكَ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ يَوْمَ
يَقُومُ الحِسَابُ، ذَلِكَ يَوْمَ تَذْهَبُ الدُّنْيَا فِيهِ بِحَالِهَا، وَتَبْقَى الأَعْمَالُ قَلَائِدَ
فِي أعْنَاقِ عُمَّالِهَا.

وكان يقولُ: أَيُّهَا النَّاسُ! خُذُوا صَفْوَةَ الدُّنْيَا، وَدَعُّوا كَدْرَهَا؛ فَلَيْسَ
الصَّفْوَةُ مَا عَادَ كَدْرًا، وَلَا الكَدْرُ مَا عَادَ صَفْوًا. دَعُّوا مَا يَرِيْبُكُمْ إِلَى مَا لَا
يَرِيْبُكُمْ؛ تُرْتَجَى السَّلَامَةُ فِي العَاجِلَةِ وَالآجِلَةِ لَكُمْ. وَقَدْ رَأَيْتُ أَقْوَامًا كَانُوا
فِي مَا أَحَلَّ اللهُ لَهُمْ مِنَ الدُّنْيَا أَرْهَدَ مِنْكُمْ فِيمَا حُرِّمَ عَلَيْكُمْ مِنْهَا.

وكان يقولُ: مَا أُعْطِيَ رَجُلٌ شَيْئًا مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا قِيلَ لَهُ: خُذْهُ وَمِثْلَهُ مِنْ
الجِرْصِ.

وكان يقولُ: مَنْ حَمِدَ الدُّنْيَا، ذَمَّ الآخِرَةَ، وَلَيْسَ يَكْرَهُ لِقَاءَ اللهِ إِلَّا مُقِيمٌ
عَلَى سَخَطِهِ.

وكان يقولُ: ابْنَ آدَمَ! مَا أُعْطَاكَ اللهُ تَعَالَى الدُّنْيَا إِلَّا اخْتِيَارًا، وَلَا زَوَاها
مُدَّ خَلْقَها عَن عِبَادِهِ المُؤْمِنِينَ إِلَّا اخْتِيَارًا.

قال الحَسَنُ بْنُ جَعْفَرٍ: سَمِعْتُ مالِكَ بْنَ دِينَارٍ يَقُولُ: الدِّينَارُ وَالدرْهُمُ
أَهْوَنُ مِنَ النَّوَى، فَعَرَفْتُ ذَلِكَ الحَسَنَ بْنَ أَبِي الحَسَنِ، فَقَالَ: يَرْحَمُ اللهُ
مالِكا، هُمَا أَهْوَنُ عَلَيَّ مِنَ الحَصْبَاءِ، النَّوَى تَأْكُلُهُ الدَّوَابُّ، وَيَنْتَفِعُ بِهِ
النَّاسُ، وَالدِّراهِمُ تَقْتُلُ مَنْ كَسَبَهَا مِنْ غَيْرِ حِلِّها، وَتَهْوِي بِهِ فِي نارِ جَهَنَّمَ
وَيُشَسِّ المَصِيرُ.

وكان يقولُ: إِنَّ مِمَّا يُزَهِّدُ ذَا الهِمَّةِ فِي الدُّنْيَا، وَيُلْزِمُهُ تَرْكُها، وَيُوجِبُ
عَلَيْهِ إِلَّا يَحْرِصَ عَلَيْها: عِلْمُهُ بِأَنَّ الأَرْزاقَ لَمْ تُقَسَّمْ فِيها عَلَى قَدْرِ
الأَخْطارِ.

وكان يقول: صحبتُ أقواماً كانَ أحدهمُ يأكلُ على الأرضِ، وينامُ عليها، منهمُ صفوانُ بنُ مُحَرِّزٍ، كانَ قد عَوَّدَ نفسه أكلَ رَغِيفٍ، وكان يقولُ: إذا أتيتُ إلى أهلي، وأصبتُ رَغِيفاً، فجزى اللهُ الدنيا عن طُلَّابِها والراغبينَ فيها شِراً، وكان آخرُ يقول: إذا أكلتُ من طعامِكُم رَغِيفاً، وشربتُ كوزَ ماءٍ، فعلى دُنْيَاكُم العَفَاءُ.

وكان الحسنُ يقول: أهينوا الدنيا، فأكرمُ ما تكونُ حينَ تُهانُ.

ولقد رُوِيَ: إذا كانتِ الدنيا في القلبِ، نَفَرَتْ عنها الآخرةُ؛ لأنها عزيزةٌ كريمةٌ.

وكان يقولُ: ابنَ آدمَ! إن لكَ عاجلةً وأجلةً، فلا تُؤثِرَنَّ عاجلتَكَ على آجلَتِكَ فتندمَ، واعلمْ أنك إن تَبِعَ دُنْيَاكَ بأخرتِكَ تَرَبَّحَهُمَا، وإن تَبِعَ آخرتَكَ بدُنْيَاكَ تَخَسَّرَهُمَا.

ابنُ آدمَ! إنه لا يَضُرُّكَ ما رُوِيَ عنكَ من دُنْيَاكَ إذا ادَّخَرَ لكَ خيرَ آخرتِكَ، وما يَنْفَعُكَ خيرٌ ما أصبتَ منها إذا حُرِمْتَ خيرَ آخرتِكَ.

ابنُ آدمَ! إنَّ الدنيا مَطِيَّةٌ، إن رَكِبْتَهَا حَمَلْتِكَ، وإن حَمَلْتَهَا أَثَقَلْتِكَ.

ابنُ آدمَ! إنك مُرْتَهَنٌ بعمَلِكِ، واردٌ عليكَ أَجَلُكَ، مَعْرُوضٌ على رَبِّكَ، فَخُذْهُمَا في يَدَيْكَ لِمَا بَيْنَ يَدَيْكَ؛ فعندَ الموتِ يَأْتِيكَ الخَبْرُ اليَقِينُ، ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾ (٨٨) إِلَّا مَنْ آتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ (١).

وكان يقولُ: اللهُ دَرُّ بَكْرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ حينَ قالَ: الدنيا ما مَضَى منها فَحُلْمٌ، وما بَقِيَ منها فَأَمَانِيٌّ وَإِثْمٌ.

(١) سورة الشعراء: ٨٨ - ٩٩.

وكان الحسنُ يقولُ: إنَّ كانَ بغيثِكَ من الدنيا ما يكفيكَ، فأذني ما فيها
يُكفيكَ، وإنَّ كانَ الذي تعملُ منها ما يكفيكَ، فليس شيءٌ يكفيكَ .
وكان يقولُ: إنَّ هذا الموتُ فَصَحَ الدنيا، فلم يتركْ لأحدٍ بها فرحاً .
وكان يقولُ: لئنْ كانتِ الدنيا مُلِئتْ باللذاتِ، فلقد حُشيتْ بالآفاتِ،
ووجبتْ من أجلها التُّباعاتُ .

وكان يقولُ: ابنَ آدمَ! إياكَ أن تكونَ صاحبَ دُنيا، لَهَا تَرْضَى، ومن
أجلِهَا تَغْضَبُ، وعليها تُقَاتِلُ، وفيها تتعبُ وتَنْصَبُ، ارفضُها إلى النارِ إن
كنتَ طالبَ الجَنَّةِ، أو فدَعِ التَّمَنِيَّ يا لُكْعُ؛ فإنَّ حكيماً يقولُ:
وإنَّ امرأً دُنياهُ أَكْبَرُ هَمِّهِ لَمُسْتَمْسِكٍ مِنْهَا بِحَبْلِ غُرُورٍ
ابنَ آدمَ! الثَّوَاءُ هَاهُنَا قَلِيلٌ، والعذابُ هُنَاكَ كَثِيرٌ طَوِيلٌ، لقد رُوِيَ عن
بعضِ الزاهدين أَنه كانَ يقولُ: الدنيا والدَةُ للموتِ، ناقِضَةٌ للمُبرَمِ،
مُرْتَجِعَةٌ للعَطِيَّةِ، وكلُّ مَنْ فِيهَا يَجْرِي إلى ما لا يَذْرِي، وكلُّ مُسْتَقَرٍّ فِيهَا
غَيْرُ راضٍ بِهَا، وذلكَ دَلِيلٌ على أَنَّها ليستْ بدارِ قَرارٍ .

وكان يقولُ: ابنَ آدمَ! إياكَ والتسويْفُ؛ فإنه مُهْلِكٌ، يَعمِدُ أَحَدُكُمْ إلى
رِزْقِ اللَّهِ فينْفِقُهُ في البِناءِ والتبذيرِ، والسَّرْفِ والمَخِيلَةِ، وفي زِينَةِ الحِياةِ
الدُّنيا، ولعلَّ أَحَدُكُمْ أن يَنْفِقَ مِثْلَ دِينِهِ في بُلُوغِ هَوَاهِ، ولا يَتَصَدَّقَ بِدَرَاهِمِ
واحدٍ طُغْيَاناً في رِزْقِ اللَّهِ، وهَرَباً عن حَقِّ اللَّهِ، ستعلم يا لُكْعُ! .

وكان يقولُ: إنَّ المؤمنَ كَيْسٌ، نَظَرَ فَأَبْصَرَ، وَتَفَكَّرَ فَاعْتَبَرَ، ثُمَّ عَمِدَ
إلى دُنياهُ فهدَمَها، وبنى آخِرَتَهُ، ولم يهدِمِ آخِرَتَهُ لِبِناءِ دُنياهُ، ولم يزلْ ذلكَ
عملَهُ حتى لَقِيَ رَبَّهُ فَرَضِيَ عَنْهُ وَأَرْضاهُ، وإنَّ المَنافِقَ عَمِدَ فَنافَسَ عن
دُنياهُ، وَعَمِيَ عن آخِرَتِهِ، اتَّخَذَ الدُّنيا إِلِهاً، وَيَحَهُ! أَلِها خُلِقَ؟ أمْ بالجمعِ

لَهَا أَمْرٌ، سَيَعْلَمُ الْمَغْرُورُ يَوْمَ ﴿يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَصِي
وَالْأُقْدَامِ﴾^(١).

ابن آدم! لا غناء بك عن نصيبك من الدنيا، وأنت إلى نصيبك من
الآخرة أفقر، فعليك به؛ فإنه سيأتي بك إلى نصيبك من الدنيا، فينظمه لك
نظماً يزول معك حيث تزول.

وكان يقول: ابن آدم! وُصِفْتَ لك الدنيا، وغابَتْ عنك أمورُ الآخرة،
وقربَ منك الأجلُ، وأُمرتَ بالعملِ، وحقُّ الله ألزمُ لك، فاعملْ لمعادك،
فلن يرضى ربُّك منك إلا بأداء ما فُرضَ عليك.

ابن آدم! إذا رأيتَ الناسَ في خيرٍ، فنافسُهُمْ، وإذا رأيتَهُمْ في هَلَكَةٍ مِنْ
طَلَبِ الدُّنْيَا، فذَرَّهُمْ وما اختاروا لأنفسِهِمْ، ولقد رأيتُ أقواماً آثروا
عاجلتَهُمْ على آجلَتِهِمْ، ودُنْيَاهُمْ على آخِرَتِهِمْ، فافتضحوا، وذُلُّوا،
وهلكوا، وعوقبوا بموتِ القلوبِ.

وكان يقول: عقوبة العلماء موتُ قلوبِهِمْ؛ لطلبِهِم الدنيا بعملِ الآخرةِ.
وكان يقول: أيُّها المغرورون! إنّما الدنيا جيفةٌ يَنْهَشُهَا عُشَّاقُهَا، فهي
تقتلُ بعضهم ببعضٍ، وهم لا يشعرون، مَنْ رَكَنَ إِلَيْهَا، ذَلَّ واقْتَصَرَ، وَمَنْ
زَهَدَ فِيهَا، عَزَّ واقْتَدَرَ.

وقيل: مرَّ الحَسَنُ بِرَجُلٍ وَهُوَ يُنْشِدُ:

فإِذَا لَيْسَ بِي قُبْحٌ وَلَكِنْ عَسَى يَغْتَرُّ بِي حَمَقٌ لَيْمٌ
فقال: اللهُ أكبرُ! وإيمُ اللهُ! لو كان للدنيا شعرٌ، لكانَ هذا.

(١) سورة الرحمن: ٤١.

ويقال: إن من شغره - رحمه الله - في صفة الدنيا:

أحلامُ نَوْمٍ أَوْ كَظَلِّ زَائِلٍ إِنَّ اللَّيْبَ بِمِثْلِهَا لَا يُخْدَعُ
وكان يقول: ابن آدم! سوطاً سوطاً، جمعاً جمعاً في وعاء، ونبدأ في
وكاء، تركبُ الذَّلُولَ، وتلبسُ اللَّيْنَ، كأن قد قيل: مات وأفضى - والله -
إلى الآخرة. إن المؤمنَ عَمِلَ أياماً يسيرةً، فوالله ما ندَمَ أن قد أصابَ من
نعيمِ الدنيا ورخائِها، مع استهانتِهِ بها، وهضمِها لها، وتزوُّدِهِ لآخرته منها،
لم تكن الدنيا في نفسه على مقدار، ولا رَغِبَ في نعيمِها، ولا فرحَ
برخائِها، ولا تعاضَمَ في نفسه شيءٌ من بلائِها، مع احتسابِهِ الأجرَ عندَ الله -
عزَّ وجلَّ -، مضى راغباً راهباً، فلم يلمسْ ثوابَ الدنيا، ولا عرَّجَ على
نعيمِها، فهيناً له، أمَّنَ اللهُ بذلك روعتهُ، ويسرَّ حسابَهُ، وأمنَهُ عقابَهُ.

وكان يقول: إنما الغدُّ والرواحُ وحظُّ من الدُّلجَةِ والاستقامةِ
لا يُلبِّسُكَ أن تقدَمَ على الله وهو راضٍ عنك، فيدخلُكَ الجنةَ، فتكونَ مِنَ
المُفلِحِينَ.

وكان يقول: أيها الناس! إن الله لا يُخدَعُ عن جنَّتِهِ، ولا يُعطِيها أحداً
من عبادهِ بالأمانِي.

وكان يقول: أيها الناس! عليكم بالزَّهادَةِ في الدنيا؛ فقد روي أن
عيسى - عليه السلام - كان يقول: إدامي الجوعُ، وشِعاري الخوفُ،
ولباسي الصوفُ، واضطِلاني في الشتاءِ الشمسُ، وسراجي القمرُ،
وراحلتي رجلاي، وفاكِهتي ما تبتُّ الأرضُ، ويعلمُ اللهُ أني أبيتُ
ولا شيءَ لي، وأصبحُ ولا شيءَ لي، وأحسبُ أن ليسَ على الأرضِ أغنى
مني.

وكان الحسنُ يقولُ: رُوِيَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ فِي بَعْضِ أَيَّامِهِ:
وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ! مَا أَصْبَحَ الْيَوْمَ فِي آلِ مُحَمَّدٍ مِنْ طَعَامٍ، وَإِنَّهُمْ
لَتِسْعَةُ آيَاتٍ^(١).

قال الحسنُ: أما والله ما قالها ﷺ استبطاءً لِرِزْقِ رَبِّهِ، ولا طلباً لِمَا لَمْ
يُعْطِهِ، ولكن لِنَتَأَسَّى بِهِ أُمَّتُهُ، وتَعْلَمَ أَنَّ لا قَدْرَ لِلدُّنْيَا عِنْدَهُ.

وكان يقولُ: لقد عُرِضَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَفَاتِيحُ الدُّنْيَا، وَخَزَائِنُ
الأَرْضِ، ولا يَنْقُصُهُ اللهُ مِنْ أَجْرِهِ شَيْئاً، فأبى أَنْ يَقْبَلَهَا، وَكَرِهَ أَنْ يُخَالَفَ
رَبَّهُ، وَأَنْ يُحِبَّ مَا أَبْغَضَهُ، أو يَرْفَعَ مَا وَضَعَهُ، ولقد رُوِيَ أَنَّهُ ﷺ كَانَ
يَقُولُ: «مَنْ زَهَدَ فِي الدُّنْيَا هَانَتْ عَلَيْهِ المَصَائِبُ»^(٢).

وكان الحسنُ يقولُ: رُوِيَ أَنَّهُ يُؤْتَى بِالدُّنْيَا يَوْمَ القِيَامَةِ مَعَ كُلِّ زِينَةٍ كَانَتْ
فِيهَا مُذْ خَلَقَهَا اللهُ - عَزَّ وَجَلَّ - إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ، تَتَصَرَّمُ فَتَقُولُ: يَا رَبُّ!
اجْعَلْنِي لِأَحَدِ أَوْلِيائِكَ، فيقولُ اللهُ سُبْحَانَهُ: اسْكُتِي، فما خَلَقْتُ خَلْقاً هُوَ
أَبْغَضُ إِلَيَّ مِنْكَ، وَمِمَّنْ آثَرَكَ وَاخْتَارَكَ عَلَى مَا عِنْدِي.

(١) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٢٣٨/٣)، وفي كتاب «الزهد» (ص: ١٠) بلفظ:
«وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ! مَا أَمْسَى فِي آلِ مُحَمَّدٍ صَاعٌ مِنْ حَبٍّ، ولا صَاعٌ مِنْ تَمْرٍ،
وَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ تِسْعَةُ آيَاتٍ، لَهُ يَوْمَئِذٍ تِسْعُ نِسْوَةٍ».

(٢) أورده ابن الجوزي في «الموضوعات» (١٨٠/٣) بلفظ: «من اشتاق إلى الجنة، سارع
إلى الخيرات، ومن أشفق من النار، لها عن الشهوات، ومن ترقب الموت، لها عن
اللذات، ومن زهد في الدنيا، هانت عليه المصائب» وقال: «هذا حديث لا يصح عن
رسول الله - ﷺ -، وفيه عبدُ الله بن الوليد، قال يحيى: ليس بشيء». وقال الغلاس
والنسائي: متروك الحديث، على أن الحارث كذاب.

وقد أورده السيوطي في «اللآلي المصنوعة» (٣٥٩/٢)، ونسبه للخطيب، وتمايم
الرازي في «فوائده»، وابن صفوة في «أماله».

وكان الحسن يقول: المؤمن أسير في الدنيا، يسعى في فكاك رقبته، لا يأمن حتى يلقى ربه.

وقال له رجل يوماً: يا أبا سعيد! أي اللباس أحب إليك؟ قال: أغلظه، وأخشئه، وأوضعه عند الناس، فقال الرجل: أليس قد روي: «إن الله جميل يحب الجمال»^(١)؟! فقال: يابن أخي! لقد ذهبت إلى غير المذهب، لو كان الجمال عند الله اللباس، لكان الفجار إذا عنده أوجه من الأبرار، إنما الجمال: التقرب إلى الله بعمل الطاعات، ومجانبة المعاصي، ومكارم الأخلاق ومحاسنها، وكذلك ما روي عن رسول الله ﷺ في الصحيح أنه قال: «بُعِثْتُ لِأَتُمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ»^(٢).

ولقد روي أن عيسى - عليه السلام - قال للحواريين: أجيئوا أكبادكم، وشعئوا رؤوسكم، وضعوا عليها جلباب الحزن؛ لعلكم ترون ربكم بعيون قلوبكم.

وكان يقول: قيل للحسن بن علي - رضي الله عنهما -: من أعظم الناس

(١) رواه مسلم في الإيمان، باب: تحريم الكبر وبيان (٩١/١) من حديث عبد الله بن مسعود، عن النبي - ﷺ - قال: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر». قال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسنة، قال: «إن الله جميل يحب الجمال، الكبر بطر الحق وغمط الناس».

(٢) «الموطأ»، في حسن الخلق، باب: ما جاء في حسن الخلق: برقم (٨) بلفظ: «بعثت لأتمم حسن الخلق» وهو منقطع الإسناد، وله شاهد من حديث أبي هريرة، رواه أحمد (٣٨١/٢) بلفظ: «إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق». وقال الهيثمي في «المجمع» (١٥/٩): «ورجاله رجال الصحيح». وقال ابن عبد البر: «هو حديث مدني صحيح متصل من وجوه صحاح عن أبي هريرة، وغيره، فالحديث حسن بشواهده».

قَدْرًا؟ فقال: مَنْ لَا يُبَالِي الدُّنْيَا فِي يَدِ مَنْ كَانَتْ.

وقيل له: فَمَنْ أَخْسَرُ النَّاسِ صَفَقَةً؟ قَالَ: مَنْ بَاعَ الْبَاقِيَ بِالْفَانِي.

وقيل له: مَنْ أَعْظَمُ النَّاسِ قَدْرًا؟ قَالَ: مَنْ لَا يَرَى الدُّنْيَا لِنَفْسِهِ قَدْرًا.

ويُروى أَنَّ رَجُلًا قَالَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ: دُلَّنِي عَلَى عَمَلٍ إِذَا عَمِلْتُهُ أَحَبَّنِي اللَّهُ، وَأَحَبَّنِي النَّاسُ؟ فَقَالَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ -: «أَزْهَدْ فِي الدُّنْيَا يُحِبُّكَ اللَّهُ، وَأَزْهَدْ فِيمَا عِنْدَ النَّاسِ يُحِبُّكَ النَّاسُ»^(١).

وكان الحسنُ يقولُ: إِذَا أَصْبَحَ الْعَبْدُ وَجَبَّتْ عَلَيْهِ أَرْبَعَةٌ أَشْيَاءَ: حُبُّ اللَّهِ تَعَالَى، وَحُبُّ دِينِ اللَّهِ، وَحُبُّ الْآخِرَةِ، وَبُغْضُ الدُّنْيَا.

وقال له رجلٌ: يَا أَبَا سَعِيدٍ! مَا تَقُولُ فِي الدُّنْيَا؟ فَقَالَ: وَمَا عَسَى أَنْ أَقُولَ فِي دَارِ حَلَالِهَا حِسَابٌ، وَحَرَامِهَا عِقَابٌ؟ فَقَالَ الرَّجُلُ: تَاللَّهِ مَا رَأَيْتُ كَلِمًا أَوْجَزَ مِنْ كَلِمِكَ، فَقَالَ الْحَسَنُ: بَلْ كَلَامُ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ أَوْجَزُ وَأَبْلَغُ مِنْ كَلَامِي؛ حَيْثُ كَتَبَ إِلَيْهِ عَامِلٌ حِمَصَ: إِنَّ سَوْرَهَا قَدْ تَهَدَّمَتْ،

(١) رواه ابن ماجه في الزهد، باب: الزهد في الدنيا: برقم (٤١٠٢) من حديث سهل بن سعد الساعدي. وقال في «الزوائد»: «في إسناده خالد بن عمرو، وهو ضعيف متفق على ضعفه، واتهم بالوضع». ورواه العقيلي في «الضعفاء»، وابن عدي في «الكامل» (١١٧/٢)، وأبو نعيم في «الحلية» (١٣٧/٧)، وفي «تاريخ أصبهان» (٢/٢٤٤-٢٤٥)، والحاكم (٣١٣/٤)، كلهم من طرق عن خالد بن عمرو، عن سفيان الثوري، عن أبي حازم، عن سهل بن سعد الساعدي. وقال الحاكم: صحيح الإسناد. وردّه الذهبي بقوله: خالد وضاع. وله متابع من طريق محمد بن كثير الصنعاني. ذكره البغوي في «شرح السنة» (٢٣٨/١٤)، وله شاهد عند أبي نعيم في «الحلية» (٤١/٨) من حديث منصور بن المعتمر، عن مجاهد، عن أنس. وقد حسنه النووي، والعراقي. «جامع العلوم...». وأورده الألباني في «الصحيح» برقم (٩٤٤). وانظر: «صحيح الجامع» برقم (٩٢٢).

واحتاج إلى الإصلاح ! فكتب إليه : حصن مدينتك بالعدل، ونقها من الظلم، تأمن عليها المخاوف، وترج لها السلامة.

وكان يقول : روي أن الله تعالى أوحى إلى الدنيا : من خدمني فخدمته، ومن خدمك فاستخدمته.



ومن هذا الفصل

ما رُوِيَ عنه - رضي الله عنه - في قصر الأمل

كان الحسن - رحمه الله تعالى - يقول: ابن آدم! طأ الأرض بقدمك؛ فإنها عن قليل تكون قبرك، ودع الغفلة؛ فإنك لم تزل في هدم عمرك منذ خرجت من بطن أمك.

ابن آدم! لا تحمِلْ على يومك همَّ غدك، وليكفِ كلَّ يوم همُّه، إنَّ غداً إن كان من عمرك، أتاك فيه رزقك.

وكان يقول: رَحِمَ اللهُ عبداً جعل العيشَ عيشاً واحداً، فأكل ما يُمِسُّك رَمَقَهُ، ولبسَ خَلَقَهُ، وألصقَ بالأرضِ خَدَّهُ، مُجْتَهداً في عِبَادَةِ رَبِّهِ، حتى يَأْتِيَهُ أَجَلُهُ، وهو كذلك.

وكان يقول: ما أطالَ عبدٌ الأملَ إلا أساءَ العملَ.

وقيل: مرَّ به بائعٌ جارِيَةٌ، فساوَمَ فيها ما لا كثيراً، فقال: بِعْها بِدِرْهَمٍ؛ فإن الله باعَ مِنْ عِبَادِهِ الحُورَ العِينَ بالفلسِ واللُّقْمَةِ.

وكان يقول: ابن آدم! صُمِّمَ كَأَنَّكَ إِذَا ظَمِئْتَ لَمْ تُكُنْ رَوِيَّتَ، وَإِذَا رَوِيَّتَ لَمْ تُكُنْ ظَمِئْتَ، فَإِنَّ الحَالَ أَضْيَقُ، وَالعُمُرَ أَقْصَرُ، وَالأمْرَ أَيْسَرُ أَنْ تَبْقَى فِيهِ عَلَى حَالٍ.

وكان يقول: دخلنا على صفوان بن محرز^(١)، وهو في بيت من قصب
قد مال عليه، فقلنا: أصلحك الله، لو أصلحت هذا البيت، فقال: كم من
رجل مات وهذا مائل كما ترون!

وكان يقول: رأيت رجلاً أصابه الجهد، فدفع له درهم، فقال:
لا حاجة لي فيه، إن السوق قد ارتفع، وأخاف أن أموت قبل إنفاقه،
وأتركه ميراثاً، وأحاسب عليه، وإن عشتُ غداً، كان رزقي على الله وحده
لا شريك له.

وكان يقول: إن الله يعطي العبد؛ مكرأ به، ويحرمه؛ نظراً له، ومن
تعرض لمكر الله، استوجب عقوبته.

وكان يقول: ابن آدم! إنما أنت عدد أنفاسك وأوقاتك، كلما مضى لك
وقت، انقضى منك بعض. والله در القائل:

إننا لنفرح بالأيام نقطعها وكل يوم مضى بعض من الأجل
فأعمل لنفسك قبل اليوم مجتهداً فإنما الربح والخسران في الأجل

وكان يقول: ابن آدم! إن لك أجلاً وأملاً، فإن أدركك أملاك، قرّبك
من أجلك، وإن أدركك أجلك، اجتاحك قبل أملاك.

وكان يقول: اجتمع ثلاثة نفر، فتكلموا في قصر الأمل، فقال أحدهم:
ما مرّ بي قط شهر إلا ظننتُ أني أموتُ فيه.

وقال الآخر: ما مرّ بي قط يوم إلا قدرْتُ أني أموتُ فيه.

(١) صفوان بن محرز المازني البصري العابد، أحد الأعلام، حدث عن أبي موسى
الأشعري، وعمران بن حصين، وابن عمر. وقال ابن جبان في «الثقات»: «مات سنة
٧٤ هـ».

وقال الثالث : العَجَبُ كُلُّ العَجَبِ من آمِلٍ أَجَلُهُ بيدِ غيرِهِ ، ورزقُهُ عندِ سِوَاهُ .

وأنشد :

ما أنزلَ المَوتَ حَقَّ مَنزِلِهِ مَنْ عَدَّ وَقْتاً لَمْ يَأْتِ مِنْ أَجَلِهِ
وكان يقولُ : رُوِيَ أَنَّ اللهَ سَبَحَانَهُ لَمَّا خَلَقَ آدَمَ - عليه السلامُ - ، جعلَ أَجَلَهُ بينَ عَيْنَيْهِ ، وَأَمَلَهُ خَلْفَ ظَهْرِهِ ، فَلَمَّا وَقَعَ الخَطِيئَةُ ، حُوِّلَ ، فَجُعِلَ أَمَلُهُ بينَ عَيْنَيْهِ ، وَأَجَلُهُ خَلْفَ ظَهْرِهِ ، فَذَلِكَ ما كانَ في بَنِيهِ مِنْ طُولِ الأَمَلِ ، والغَفْلَةِ عنِ الأَجَلِ .

وكان يقولُ : ابنَ آدَمَ ! إِنَّكَ لو قَصَّرْتَ مَسِيرَ أَجَلِكَ ، لأبغضتَ غُرُورَ أَمَلِكَ ، ولو أَبصرتَ قَلِيلَ ما بَقِيَ من عُمُرِكَ ، لزهدتَ في أَكثَرِ ما تَرَجَّوه من أَمَلِكَ .

وقيل : صَلَّى الحَسَنُ على جَنَازَةٍ ، ثم مشى إلى القَبْرِ ، ثم قال : يا لَهَا موعظَةٌ وَعِظٌ بها عبادُ اللهِ ، لو وافقتُ قلباً حَيًّا ، ولكنْ لا حياةَ للقلوبِ .

أيها الناسُ ! إِنَّ المَوتَ فَضَحَ الدُّنْيَا ، فلم يَدَعُ لِذِي لُبِّ فيها بَعْدَهُ فَرَحًا ، فَرحِمَ اللهُ مَنْ أَخَذَ مِنْهَا قوتًا ، وتركَ الفضلَ لِيومِ فاقَتِهِ وفَقْرِهِ ، فكأنَّ المَوتَ قد نَزَلَ ، وانقطعَ العملُ ، فَرحِمَ اللهُ لَبِيئاً قَصَرَ أَمَلَهُ ، وراقبَ أَجَلَهُ .

وكان يقولُ إذا مرَّتْ به جِنَازَةٌ - : اغدُ ، فإنَّا راثِحونَ ، أو : رُوحوا فإنَّا غادونَ .

وقيل : رأى الحَسَنُ على مالِكِ بنِ دينارٍ رِداءَ صُوفٍ ، فقال : أَيُعجِبُكَ الطَّيْلَسَانُ ، أصلحك اللهُ ؟ فقال : نعم ، فقال : لِيَهُنْ عندَكَ ؛ فإنه كانَ على شاةٍ قَبْلَكَ ، فَنُزِعَ عنها .

وكان يقول: أيها المرء! أجلك أنت السوادُ المُختَطَفُ في يومك .

أيها المرء! إنك لا تدري بأي سبب تموت .

أيها المرء! داوِ نفسك قبل أن تقف بك على العطب .

وقال: قيل لخالد بن يزيد بن معاوية^(١): ما أقرب شيء؟ قال: الأجل، قيل له: فما أبعد شيء؟ قال: الأمل، قيل له: فما أنس شيء؟ قال: الصاحب المواتي، قيل: ما أوحش شيء؟ قال: الميت .

وكان يقول: روي أن رجلاً قال لأمّ الدرداء: إني لأجد في قلبي داءً لا أجد له دواءً: أجد قسوةً شديدةً، وأملاً بعيداً، فقالت: اطلع في القبور، واحضر الجنائز، وشاهد الموتى، فعساك أن تكفي .

وكان يقول: وُجد في حجر مكتوب: ابن آدم! إنك لو رأيت قليلاً ما بقي من أجلك، لزهدت فيما ترجوه من أملك، ولرغبت في الزيادة من عملك، ولقصرت من حرصك وحيثك، وإنما يلقاك غداً ندمك، لو قد زلت بك قدمك، وأسلمك رهطك وحشمك، وتبرأ منك القريب، وانصرف عنك الحبيب، وصرت تُدعى فلا تجيب .

وكان يقول: إن رجلاً ليس بينه وبين آدم إلا أبٌ ميتٌ لمُعْرِقٍ في الموتى .

وكان يقول: مثلُ العلماءِ في الجهالِ مثلُ الأطباءِ في المرضى .

وسمع الحسنُ الحجاجُ يخطبُ على منبرِ البصرةِ ويقول: أيها الناس!

(١) خالد بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان الأموي، أبو هاشمِ الدمشقي، قيل: توفي سنة أربع أو خمس وثمانين، وقيل: سنة تسعين .

إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى - كَتَبَ عَلَى الدُّنْيَا الْفَنَاءَ، وَعَلَى الْآخِرَةِ الْبَقَاءَ، فَلَا يُغَرِّنُكُمْ شَاهِدُ الدُّنْيَا عَلَى غَائِبِ الْآخِرَةِ، وَأَقْهَرُوا طَوْلَ الْأَمَلِ بِقِصْرِ الْأَجَلِ. ثُمَّ يَقُولُ: عَجَبًا لِلْحَجَّاجِ! كَيْفَ عَرَفَ مَا عَرَفَ، وَصُرِفَ عَنِ الْحَقِّ فَانصَرَفَ.

* * *

أبو سلوم المعتزلي

الفصل الخامس

فيما أورده على جهة الاستغفار والدعاء
والنهي عن التصعُّع والرياء

إلهي! مَنْ أَوْلَى بِالزَّلَلِ والتَّقْصِيرِ مِنِّي؟ وَأَوْلَى بِالْمَغْفِرَةِ والعَفْوِ مِنْكَ عَنِّي؟ وقد خلقتني ضعيفاً لا أملكُ لنفسي ضراً ولا نفعاً!
إلهي! عِلْمُكَ فِيَّ سَابِقٌ، وَقَضَاؤُكَ بِي مُحِيطٌ، وَأَمْرُكَ فِيَّ نَافِذٌ، أَطَعْتُكَ بِإِذْنِكَ وَمَعُونَتِكَ، وَالْمِنَّةُ لَكَ، وَعَصَيْتُكَ بِعِلْمِكَ، وَالْحُجَّةُ لَكَ، فَبِوَجُوبِ حُجَّتِكَ، وَانْقِطَاعِ حُجَّتِي، ثَبَّتْ خَوْفَكَ فِي قَلْبِي حَتَّى لَا أَرْجُو سِوَاكَ، وَلَا أَخَافُ غَيْرَكَ.

اللهمَّ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ! صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ، وَاعْفُرْ لِي وَلِكَافَّةِ الْمُؤْمِنِينَ، وَحَسْبِيَ اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ.

وَرُويَ أَنَّهُ كَانَ إِذَا أَرَادَ سَفْرًا قَالَ: يَا مَنْ إِذَا اسْتُودِعَ شَيْئًا حَفِظَهُ وَأَدَّاهُ، اسْتُودِعَكَ مَنْ غَابَ عَنِّي، وَمَنْ حَضَرَ مِنْ أَهْلِي وَوَلَدِي، وَكُلَّ مَا مَلَكَتُهُ يَدِي، فَاحْفَظْهُمْ يَا مَنْ لَا يُخَيِّبُ وَدَائِعَهُ.

وَكَانَ إِذَا عَرَضَ لَهُ هَمٌّ، أَوْ أَصَابَهُ كَرْبٌ، قَالَ: يَا حَابِسَ يَدِ إِبْرَاهِيمَ عَنِ ذُبْحِ ابْنِهِ، وَهِيَ يَتَنَاجِيَانِ فَيَقُولُ ابْنَهُ: ارْفُقْ يَا أَبَتِ، وَيَقُولُ إِبْرَاهِيمُ: اصْبِرْ

لأمر ربنا يا بُنَيَّ، يا مُقَيِّضَ الرَّكْبِ لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ الْتَفْرِ وَغِيَابَاتِ
 الْجَبِّ، وَجَاعِلُهُ بَعْدَ الْعِبُودِيَّةِ مَلِكًا، يَا سَامِعَ هَمْسِ ذِي النُّونِ فِي ظُلُمَاتِ
 ثَلَاثِ، يَا رَادَّ بَصَرِ يَعْقُوبَ عَلَيْهِ، وَجَاعِلَ حُزْنِهِ فَرَحًا، يَا رَاحِمَ عَبْرَةَ دَاوُدَ،
 وَكَاشِفَ ضُرِّ أَيُّوبَ، يَا مَنْ يَجِيبُ دَعْوَةَ الْمُضْطَرِّ إِذَا دَعَاهُ، وَيُغِيثُ مَنْ
 اسْتَعَاثَ بِهِ وَرَجَاهُ، يَا مَنْ لَا يُعْبُدُ رَبًّا سِوَاهُ، يَا عَالِمَ النَّجْوَى، وَكَاشِفَ
 الْبَلْوَى، أَسْأَلُكَ أَنْ تُصَلِّيَ عَلَيَّ عَلَى نَبِيِّكَ الْمُصْطَفَى، وَعَبْدِكَ الْمُتَرْضَى، مُحَمَّدٍ
 وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ، وَأَنْ تَكْفِيَنِي مَا أَهَمَّنِي، وَتُفَرِّجَ كَرْبِي، يَا خَيْرَ مَنْ سُئِلَ،
 وَأَفْضَلَ مَنْ رُجِيَ، وَأَرْحَمَ مَنْ اسْتُرْحِمَ، افْعَلْ بِي مِنَ الْخَيْرِ مَا أَنْتَ أَهْلُهُ،
 يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ، وَحَسْبِيَ اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ.

وكان يقول إذا دخل الجبَّانة: اللَّهُمَّ رَبَّ هَذِهِ الْأَجْسَادِ الْبَالِيَةِ، وَالْعِظَامِ
 النَّخِرَةِ، الَّتِي خَرَجَتْ مِنَ الدُّنْيَا وَهِيَ بِكَ مُؤْمِنَةٌ، وَلِرَحْمَتِكَ رَاجِيَةٌ، أَرْسِلْ
 عَلَيْهَا رَوْحًا مِنْكَ وَسَلَامًا مِنِّي.

ثم يقول: رُوِيَ أَنَّ الْعَبْدَ إِذَا قَالَ ذَلِكَ، اسْتَغْفَرَ لَهُ كُلُّ مَيِّتٍ مُذْ خَلَقَ اللَّهُ
 آدَمَ إِلَى أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ^(١).

وروي: أَنَّ الْحَجَّاجَ أَخَافَهُ وَطَلَبَهُ، فَقَالَ: يَا سَامِعَ دَعْوَتِي، وَيَا عُدَّتِي
 فِي مُلَمَّتِي، وَكَاشِفَ كَرْبَتِي وَشِدَّتِي، وَيَا رَاحِمِي وَوَلِيَّ نِعْمَتِي، وَيَا إِلَهِي،
 وَإِلَهَ إِبْرَاهِيمَ، وَإِسْمَاعِيلَ، وَإِسْحَاقَ، وَيَعْقُوبَ، وَالْأَسْبَاطِ، وَمُوسَى،
 وَعِيسَى، وَمُحَمَّدٍ، وَرَبِّ النَّاسِ كُلِّهِمْ، بِحَقِّ ﴿كَهَيَعَصَّ﴾ و﴿طه﴾
 و﴿يس﴾ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ﴿﴾، صَلَّى اللَّهُمَّ عَلَى مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ
 الطَّاهِرِينَ، وَاكْفِنِي شَرَّهُ، وَشَرَّ كُلِّ ذِي شَرٍّ، وَعَافِنِي مِنَ الْحَجَّاجِ، وَحَزْبِهِ،

(١) لم أقف على هذا الأثر في أذكار زيارة المقابر، ومثل هذا لا بد أن يكون بوحي من
 الشارع، فالاتباع هو الأسلم، وهو منهج الصحابة والتابعين لهم بإحسان.

وأشياءه، وجنوده، واسرف عني بقدرتك ما يُحاوله، وكُفَّ عني أذاهُ
وشره، ولا تجعل لهُ عليَّ سبيلاً يا رب العالمين، وصلى الله على سيدنا
محمد خاتم النبيين وسلّم.

وكان يقول إذا مرض: اللهم لا تجعلني ممن إذا مرض ندم، وإذا شفي
فُتن، وإذا افتقر حزن، واكفني اللهم كفاية من استكفالك، وعافني عافية من
استعفاك، ووفّقني اللهم لمحبتك ورضاك، يا مَنْ يَرْحَمُ مَنْ اسْتَرْحَمَهُ،
ويُجيب دعاء مَنْ دَعَاهُ.

وقيل: كان يغشى مجلس الحسن رجل من الخوارج، فيؤذي أهله،
ف قيل للحسن: ألا تشكوهُ للأمير؟ فقال: أرجو أن يكفينا إياه ربُّ الأمير،
فلما قدم الرجل، استقبل الحسن القبلة وقال: اللهم اكفنيه بما شئت، فخرَّ
الرجل عن دابته، وحمل ميتاً إلى أهله، فعرف الحسن، فقال: الحمد لله
الذي يكفي من استكفاه، ويقبل دعاء مَنْ دعاه، يا وَيْحَهُ ما كان أغرهُ بربه!

وكان إذا فرغ مجلسه قال: اللهم ألحطني بصالح من مضى، واجعلني
من صالح من بقي، وأعدني من شر نفسي، ومن شر كل ذي شر^(١).

ولما انتهى إلى الحسن مؤث الحجاج قال: اللهم إنه عقيرك، وأنت
قتله، اللهم فأمت حاشيته.

وكان إذا ختم القرآن قال: صدق الله الذي لا إله إلا هو الحي الذي

(١) وذلك بعد كفارة المجلس التي جاءت من حديث أبي هريرة، وعبد الله بن عمرو بن
العاص، وأبي برة الأسلمي، وعائشة - رضي الله عنهم - ورواية أبي هريرة: أن
رسول الله - ﷺ - قال: «من جلس مجلساً كثر فيه لغظه، فقال - قبل أن يقوم من
مجلسه -: سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب
إليك، إلا غفر له ما كان في مجلسه ذلك»، وهو صحيح بشواهده.

لا يموت، وبلغت الرُّسُلُ الكِرامُ، ونحنُ على ما قال ربُّنا ومولانا من
الشاهدين، والحمدُ لله ربِّ العالمين، وصلى اللهُ على محمدٍ خاتمِ
النبين، وعلى آله الطاهرين، وأصحابه المُتَّجِبين، وأزواجه أُمَّهاتِ
المؤمنين.

اللَّهُمَّ إِنَّكَ عَلَّمْتَنَا الْقُرْآنَ قَبْلَ رَغَبَتِنَا فِي تَعْلِيمِهِ، وَاخْتَصَصْتَنَا بِهِ قَبْلَ
مَعْرِفَتِنَا بِفَضْلِهِ، وَمَنْتَ عَلَيْنَا بِهِ قَبْلَ عِلْمِنَا بِنَفْعِهِ، اللَّهُمَّ فَإِذَا كَانَ ذَلِكَ مَنَّا
مِنْكَ وَجُوداً، وَكِرْماً وَلُطْفاً لَنَا، وَرَحْمَةً وَسِعَتْنا مِنْ غَيْرِ حَوْلِنَا وَلَا حِيلَتِنَا،
وَلَا قُوَّتِنَا، وَلَا قُدْرَتِنَا، اللَّهُمَّ فَهَبْ لَنَا رِعَايَةَ حَقِّهِ، وَحُسْنَ تِلَاوَتِهِ، وَحِفْظَ
آيَاتِهِ، وَالْعَمَلَ بِمُحْكَمِهِ، وَتَبْيِينَ مُتَشَابِهِهِ.

اللَّهُمَّ اهْدِنَا بِهَدَايَتِهِ، وَنَوِّرْ قُلُوبَنَا بِبَصِيرَتِهِ، اللَّهُمَّ إِنَّكَ أَنْزَلْتَهُ شِفَاءً
لِأَوْلِيائِكَ، وَشِقَاءً عَلَى أَعْدَائِكَ، وَعَمَى عَلَى أَهْلِ مَعَاصِيكَ، فَاجْعَلْهُ اللَّهُمَّ
دَلِيلًا لَنَا عَلَى عِبَادَتِكَ، وَحِصْنًا حَصِينًا مِنْ عَذَابِكَ، وَنُورًا نَهْتَدِي بِهِ يَوْمَ
لِقَائِكَ، وَنَسْتُضِيءُ بِهِ بَيْنَ خَلْقِكَ، وَنَجُوزُ بِهِ صِرَاطَكَ، وَنُصَلُّ بِهِ إِلَى
جَنَّتِكَ.

اللَّهُمَّ إِنَّا نَعُوذُ بِكَ مِنَ الْعَمَى عَنْ عِلْمِهِ، وَالْحَوْرِ عَنْ قَصْدِهِ، وَالتَّقْصِيرِ
دُونَ حَقِّهِ.

اللَّهُمَّ احْمِلْ عَنَّا ثِقْلَهُ، وَيَسِّرْ لَنَا حِفْظَهُ، وَاجْعَلْنَا مِمَّنْ يَقُومُ بِحَقِّهِ،
وَيُؤَدِّي فَرَائِضَهُ، وَيُؤْمِنُ بِمُتَشَابِهِهِ، وَيَسْتَسِينُ بِسُنَّتِهِ، وَيُحِلُّ حَلَالَهُ، وَيُحَرِّمُ
حَرَامَهُ.

اللَّهُمَّ اسْقِنَا مِنَ النُّوْمِ بِالْيَسِيرِ، وَأَيِّقِظْنَا عِنْدَ أَفْضَلِ الْأَجَلَيْنِ الَّتِي تُنَزَّلُ
فِيهَا الرَّحْمَةُ، وَتَسْتَجِيبُ الدُّعَاءَ.

اللَّهُمَّ وَانْفَعْنَا بِمَا صَرَّفْتَ فِيهِ مِنَ الْآيَاتِ، وَذَكَّرْنَا بِمَا ضَرَبْتَ فِيهِ مِنَ

الأمثال، وكَفَّرَ بِتِلَاوَتِهِ السَّيِّئَاتِ، وَلَقَّنَا بِهِ الْبُشْرَىٰ عِنْدَ الْمَمَاتِ .
اللَّهُمَّ انْفَعْنَا بِالْقُرْآنِ الْعَظِيمِ، وَبِالْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ .
اللَّهُمَّ إِنَّا نَعُوذُ بِكَ مِنْ قَسَاوَةِ قُلُوبِنَا، وَنَسْأَلُكَ الْعَفْوَ عَنْ جَرَائِمِنَا
وَذُنُوبِنَا .

اللَّهُمَّ إِنَّكَ جَعَلْتَ الْقُرْآنَ مُبَارَكًا، فَارزُقْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ بَرَكَةٍ، وَنَجِّنَا بِهِ مِنْ
كُلِّ هَلَكَةٍ .

اللَّهُمَّ اجْعَلْهُ لَنَا شَافِعًا مُشَفَّعًا، وَنُورًا وَشِفَاءً وَهُدًى وَمَوْعِظَةً .
اللَّهُمَّ أَلْزِمِ قُلُوبَنَا بِالسَّكِينَةِ وَالْوَقَارِ، وَيَسِّرْ لَنَا بِهِ كَثْرَةَ الْاسْتِغْفَارِ،
وَاجْعَلْ لِقُلُوبِنَا ذِكَاءً فِي تَفْهِيمِهِ، وَلَذَّةً فِي تَرَدُّدِهِ، وَعِبْرَةً عِنْدَ تَرْجِيْعِهِ حَتَّى
لَا نُبْتَغِي بِهِ بَدَلًا، وَلَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا، وَلَا نُؤَثِّرَ عَلَيْهِ مِنَ الدُّنْيَا غَرَضًا، إِنَّكَ
سَمِيعُ الدُّعَاءِ، قَرِيبٌ مُجِيبٌ .

اللَّهُمَّ اجْعَلِ الْقُرْآنَ ربيعَ قُلُوبِنَا، وَشِفَاءً صُدُورِنَا، وَنُورَ أَبْصَارِنَا،
وَجِلَاءَ أَحْزَانِنَا، وَذَهَابَ هُمُومِنَا وَغُمُومِنَا، وَقَائِدَنَا وَدَلِيلَنَا إِلَىٰ جَنَّاتِ
النَّعِيمِ .

اللَّهُمَّ لَا تَدَعْ لَنَا ذَنْبًا إِلَّا غَفَرْتَهُ، وَلَا هَمًّا إِلَّا فَرَّجْتَهُ، وَلَا دَيْنًا إِلَّا
قَضَيْتَهُ، وَلَا غَائِبًا إِلَّا رَدَدْتَهُ، وَلَا مَيْتًا إِلَّا رَحِمْتَهُ، وَلَا مَرِيضًا إِلَّا شَفَيْتَهُ،
وَلَا حَاجَةً مِنْ حَوَائِجِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَكَ فِيهَا رِضًا، وَلَنَا فِيهَا فَائِدَةٌ إِلَّا آتَيْتَ
عَلَىٰ قَضَائِهَا فِي يُسْرٍ مِنْكَ وَعَافِيَةٍ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ، يَا غِيَاثَ الْمُسْتَغِيثِينَ،
يَا مُجِيبَ دَعْوَةِ الْمُضْطَرِّينَ .

وَصَلِّ اللَّهُمَّ عَلَىٰ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ، وَعَلَىٰ آلِهِ الطَّاهِرِينَ .



ومن هذا الفصل

ما رُوِيَ عنه - رحمه الله - من نهيه عن التصنع وذم الرياء

وكان - رحمه الله - يقول: ابن آدم! لا تعمل شيئاً من الحق رياءً، ولا تتركه حياءً.

وقيل: وَعَظَ يوماً فتنفسَ رجلُ الصُّعْدَاءِ، فقال: يا ابنَ أخي! ما عساکَ أردتَ بما صنعتَ؟ إن كنتَ صادقاً، فقد شَهَرْتَ نَفْسَكَ، وإن كنتَ كاذباً، فقد أَهْلَكْتُهَا، ولقد كانَ الناسُ يجتهدون في الدعاءِ، وما يُسْمَعُ لأحدِهِم صوتٌ، ولقد كانَ الرجلُ ممَّنْ كانَ قبلكم يستكملُ القرآنَ، فلا يسمعُ بهِ جارُهُ، ولقد كانَ الآخرُ يتفقهُ في الدينِ، ولا يَطَّلِعُ عليه صديقُهُ، ولقد قيلَ لبعضِهِم: ما أقلُّ التفاتك في صلاتك، وأحسنَ خُشوعك! فقال: يا ابنَ أخي! وما يُدريكَ أينَ كانَ قلبي؟

وكان يقول: نظرَ رجاءُ بنِ حَيوَةَ^(١) إلى رجلٍ يتناعسُ بعدَ الصُّبْحِ، فقال: انتبه - عافاك الله - لا يَظُنُّ ظانُّ أن ذلكَ عن سهرٍ وصلاةٍ، فيَحْبِطُ عملُك.

ولقد رُوِيَ أنَّ رسولَ الله ﷺ قال لهُ رجلٌ: يا رسولَ الله! اشتبهَ علينا النفاقُ، فما هو؟ فقال - عليه السلام -: «المُرَائِي مُنَافِقٌ».

(١) رجاء بن حيوَةَ بنِ جَرُوَلٍ، وقيل: ابنُ جَنْزَلٍ، وقيل: ابنُ جَنْدَلٍ: الإمام، أبو نصر الكِنْدِيُّ الأزدِيُّ الفِلسطِينِيُّ، من أكابر التابعين، مات سنة اثنتي عشرة ومئة.

وقيل: رأى الحسنُ على فرقة السَّبْخِيِّ كِسَاءَ صُوفٍ، فقال: يا فرقة! لعلَّكَ تحسِبُ أن لك بكسائِكَ على الناسِ فضلاً؟ ولقد بَلَغَنِي أن أكثرَ لِبَاسِ أَهْلِ النَّارِ الأَكْسِيَّةُ.

وكان يقولُ: المُرائي يُريد أن يغالبَ قَدَرَ اللَّهِ فيه، هو عندَ اللَّهِ فاسقٌ ممقوتٌ، وقد أَطْلَعَ على ذلك عبادَه المؤمنين، وهو يُريدُ أن يقولَ الناسُ: هذا صالحٌ، وأنِّي له بذلك، وَعِلْمُ اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - بريائه قد ثَبَّتَ في نُفُوسِ عِبَادِهِ؟.

قال الحسنُ: ولقد حَدَّثْتُ أن رجلاً مرَّ برجلٍ يقرأ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾^(١)، فقال: والله! لأعبدنَّ اللَّهَ عِبَادَةً أَذْكَرُ بِهَا في الدُّنْيَا! فلزِمَ الصَّلَاةَ، واعتكفَ على الصِّيَامِ، حتى كان لا يُفْطِرُ، ولا يُرى إلا مُصَلِّياً وذاكراً، وكُلَّمَا مرَّ على قومٍ قالوا: لا يزالُ هذا يراني، ما أكثرَ رِياءَه! فأقبلَ على نَفْسِه وقال: تَكَلَّتْكَ أُمَّكَ، ولا أراك تُذَكِّرِينَ إلا بِشَرِّ، ولا أراك أُصِبتِ إلا بِفَسَادِ دِينِكَ، وفسادِ مُعْتَقَدِكَ، وإنَّك لم تُريدي اللَّهَ بعملِكَ. ثم بَقِيَ على عَمَلِه لم يَزِدْ عليه شيئاً، إلا أن نِيَّتَه انقلبتُ، فانقلبَ علمُ الناسِ فيه، فكان لا يَمُرُّ بقومٍ إلا قالوا: رَجِمَ اللَّهُ هذا! ثم يقولون: الآنَ الآنَ.

وكان الحسنُ يقولُ: أَخْلِصُوا لِلَّهِ عَمَلَكُمْ؛ فقد رُوِيَ أن رسولَ اللَّهِ ﷺ قال:

«مَنْ أَحْسَنَ صَلَاتَهُ حِينَ يَرَاهُ النَّاسُ، وَأَسَاءَهَا حِينَ لَا يَرَاهُ، فَتِلْكَ اسْتِهَانَةٌ اسْتِهَانَ بِهَا رَبُّهُ»^(٢).

(١) سورة مريم: ٩٦.

(٢) رواه أبو يعلى من حديث عهد الله بن مسعود، وفيه إبراهيم بن مسلم الهجري، وهو =

وكان ﷺ يقول: «مَنْ سَمِعَ النَّاسَ بِعَمَلِهِ، سَمِعَ اللَّهُ بِهِ سَامِعَ خَلْقِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَحَقَّرَهُ وَصَغَّرَهُ»^(١).

وكان الحسنُ يقولُ: ابنُ آدم! أما تَسْتَحِي؟ تَتَكَلَّمُ بِكَلَامِ الْفَاسِقِينَ^(٢)، وَتَسْطُو سَطْوَةَ الْجَبَّارِينَ.

وكان يقولُ: ابنُ آدم! تَلْبَسُ لِبَسَةَ الْعَابِدِينَ، وَتَفْعَلُ أفعالَ الْفَاسِقِينَ، وَتُخَبِتُ إِخْبَاتَ الْمُذْبِرِينَ، وَتَنْظُرُ نَظَرَ الْمُعْتَبِرِينَ، وَيُحَاك! مَا هَذِهِ خِصَالُ الْمُخْلِصِينَ، إِنَّكَ تَقُومُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بَيْنَ يَدَيَّ مَنْ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ.

وقيلَ: كَانَ الْحَسَنُ يَقُولُ: رُوِيَ أَنَّ مَنْ قَبِلَ اللَّهَ - سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى - مِنْ عَمَلِهِ حَسَنَةً وَاحِدَةً، أَدْخَلَهُ بِهَا الْجَنَّةَ، قِيلَ: يَا أَبَا سَعِيدٍ! وَأَيْنَ يُذْهَبُ بِحَسَنَاتِ الْعِبَادِ؟ فَقَالَ: إِنْ اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ - إِنَّمَا يَقْبَلُ الْخَالِصَ الطَّيِّبَ الْمُجَانِبَ لِلْعُجْبِ وَالرِّيَاءِ، فَمَنْ سَلِمَتْ لَهُ حَسَنَةٌ وَاحِدَةً، فَهُوَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ.

وكان يقولُ: رُوِيَ أَنَّ سَعِيدَ بْنَ جُبَيْرٍ^(٣) رَأَى رَجُلًا مُتَمَاوِتًا فِي الْعِبَادَةِ،

= ضعيف. «مجمع الزوائد» (١٠/٢٢١). وانظر: «ضعيف الجامع» رقم (٥٣٦١).

(١) رواه البخاري في الرقاق، باب: الرياء والسمعة (١١/٣٣٦) بنحوه. وفي الأحكام، باب: من شاق شق الله عليه (١٣/١٢٨) بنحوه.

ومسلم في الزهد، والرقائق، باب: من أشرك في عمله غير الله (٤/٢٩٨٧) بنحوه، كلاهما من حديث جنذب.

وعن ابن عباس رواه مسلم في الزهد والرقائق، باب: من أشرك في عمله غير الله (٤/٢٩٨٦) بنحوه.

(٢) هكذا في المخطوط. ولعل الصواب: القانتين.

(٣) سعيد بن جبيرة الأسدي، أبو عبد الله، تابعي ثقة، ثبت، فقيه، قتل على يد الحجاج.

فقال: يا ابن أخي! إن الإسلامَ حَيٌّ، فأخيه، ولا تُمِثَّهُ، أماتَكَ اللهُ
ولا أحيَاكَ.

وكان يقولُ: مَنْ ذَمَّ نَفْسَهُ فِي الْمَالِ، فَقَدْ مَدَحَهَا، وَبِئْسَ مَا صَنَعَ.
وكان الحسنُ يروي: أَنَّ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهَا - رَأَتْ رَجُلًا مُتَمَاوِتًا،
فَقَالَتْ: مَا بَالُ هَذَا؟ قَالُوا: إِنَّهُ صَالِحٌ، فَقَالَتْ: لَا أَبْعَدُ اللهُ غَيْرَهُ، كَانَ
عَمْرُ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - أَصْلَحَ مِنْهُ، وَكَانَ إِذَا مَشَى أَسْرَعَ، وَإِذَا ضَرَبَ
أَوْجَعَ، وَإِذَا أَطْعَمَ أَشْبَعَ، فَدَعَا التَّصَنُّعَ؛ فَإِنَّ اللهَ لَا يَقْبَلُ مِنْ مُتَّصِنٍ
عَمَلًا.

وكان يقولُ: رُوِيَ عَنْ بَعْضِ الصَّالِحِينَ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: أَفْضَلُ الزَّهْدِ
إِخْفَاءُ الزَّهْدِ.

وكان يقولُ: مَنْ تَزَيَّنَ لِلنَّاسِ بِمَا لَا يَعْلَمُهُ اللهُ مِنْهُ، شَانَهُ عِنْدَ اللهِ ذَلِكَ.

وكان يقولُ: تَفَكَّرْ سَاعَةً خَيْرٌ مِنْ قِيَامِ لَيْلَةٍ.

وكان يقولُ: إِنْ كَانَ فِي الْجَمَاعَةِ فَضْلٌ؛ فَإِنَّ فِي الْعِزْلَةِ السَّلَامَةَ.

ولقد رُوِيَ: أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ مَرَّ بِمُرْوَانَ بْنِ الْحَكَمِ^(١) وَهُوَ يَبْنِي دَارَهُ،
فَقَالَ: إِنَّهَا أَبَا عَبْدِ الْقُدُّوسِ! ابْنِ شَدِيدٍ، وَأَمَلٌ بَعِيدٌ، وَعِشٌّ قَلِيلٌ، وَكُلُّ
خَضْمًا، وَالْمَوْعِدُ اللهُ.

وكان يقولُ: قَدِيمًا امْتَحِنَ النَّاسُ بِطَوْلِ الْأَمَلِ.

سنة خمس وتسعين، ولم يكن يكمل الخمسين.

(١) مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية، وُلد بمكة، من كبار التابعين، وقيل: له
رؤية، مات خنفاً من أول رمضان سنة خمس وستين، وقيل: مات بالطاعون.

لقد روي أن حماد بن سلمة^(١) قال: كان أبو عثمان النهشلبي^(٢) يقول: أنت عليّ مئة وثلاثون سنة، ما من شيء إلا وقد أنكرته، إلا أملي؛ فإنه يزيد كل يوم.

وقيل: جزع بكر بن عبد الله على امرأته لما ماتت جزعا شديدا، فنهاه الحسن عن الجزع، فجعل بكر يصف فضلها، فقال الحسن: عند الله خير منها، فتزوج أختها، ثم لقي الحسن بعد ذلك، فقال: يا أبا سعيد! هي خير منها، فقال: لغيرها من الحور العين - عافاك الله - كنت أشرت لك، ثم أنشده:

تُوْمَلُ أَنْ تُعَمَّرَ عُمَرَ نُوحٍ وَأَمْرُ اللَّهِ يَطْرُقُ كُلَّ لَيْلَةٍ

وكان يقول: رأى بعض النساك صديقا له مَهْموماً، فسأله عن همّه؟ فقال: كان عندي يتيمٌ احتسبُ فيه الأجر، فمات، قال صديقه: فاطلب يتيماً غيره؛ فإنك لن تعدم ذلك، فقال: أخاف ألا أجد يتيماً في مثل سوء خلقه، فقال صديقه: أف لك، أما لو كنت مكانك لم أذكر سوء خلقه؛ كانه كره أن يتبجح بما كان يلقي منه.

وكان يقول: روي عن أبي الدرداء أنه قال: أضحكني ثلاثة، وأبكاني ثلاثة: أضحكني مؤملُ دنيا، والموتُ يطلبه، وغافلٌ لا يُغفلُ عنه، وضاحكٌ ملء فيه، ولا يدري أراضٍ ربُّه أم غضبانٌ عليه. وأبكاني هوّل

(١) حماد بن سلمة بن دينار: الإمام القدوة، أبو سلمة البصري. مات في سنة سبع وستين ومئة.

(٢) هكذا ورد في المخطوط، والصواب هو: أبو عثمان النهدي: عبد الرحمن بن مَلِّ بن عمرو بن عدي البصري، مخضرمٌ معمرٌ، أدرك الجاهلية والإسلام. مات سنة مئة، وقيل غير ذلك.

المَطَّلَعُ، وانقِطَاعُ العَمَلِ، وموقِفٌ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ -، لا أُدْرِي
أَيُّ مَرَبِّ بِي إِلَى الجَنَّةِ، أم إِلَى النَّارِ؟

وكان الحسنُ يقول: إنَّ اللهَ تعالى نَزَّائِلٌ فِي خَلْقِهِ، لولا ذلكَ، لم يَتَنَفَعِ
النَّبِيُّونَ وَأَهْلُ الانقِطَاعِ إِلَى اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - بشيءٍ مِنَ الدُّنْيَا؛ وهو الأملُ،
والأجلُ، والنسيانُ.

* * *

الفصل السادس

فيما رُوِيَ عنه عند تلاوة القرآن من الحكم والمواعظ

كان الحسنُ يقول: رُوِيَ أن عمرَ بنَ الخطاب - رضيَ اللهُ عنه - قال: أيتها الناس! اقرؤوا القرآن، وابتغوا ما عندَ اللهِ - عزَّ وجلَّ - بقراءته، من قبل أن يقرأه قومٌ يبتغونَ به ما عندَ الناس.

وكان يقول: إن الرجلَ إذا طلبَ القرآنَ والعلمَ لله - عزَّ وجلَّ - لم يلبثُ أن يُرى ذلكَ في خُشوعِهِ، وزُهْدِهِ، وحِلْمِهِ، وتواضُعِهِ.

وكان يقول: رَحِمَ اللهُ امرأً خلا بكتابِ اللهِ - عزَّ وجلَّ - ، وعَرَضَ عليه نفسه، فإن وافقَهُ، حَمِدَ رَبَّهُ، وسأله المزيِدَ مِنْ فضلِهِ، وإن خالفَهُ، تابَ وأتابَ ورجعَ من قريب.

وكان يقول: أيتها الناس! إنَّ هذا القرآنَ شفاءُ المؤمنين، وإمامُ المتقين، فمن اهتدى به هُديً، ومن ضلَّ عنه شقيً وابْتُليً.

وكان يقول: إنَّ مِنْ شَرِّ الناسِ أقواماً قرؤوا القرآنَ لا يعملونَ بسنتِهِ، ولا يتبعونَ لطريقَتِهِ ﴿أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّعِنُونَ﴾^(١).

لقد كانَ من تقدَّمَ يقرأ القرآنَ، ويقومُ بالسورةِ منه طولَ ليلتِهِ، فإذا

(١) سورة البقرة: ١٥٩.

أصبح عُرِفَ ذلك في وجهه، وإنَّ أحدكم يقرأ القرآنَ لا يتجاوزُ لهوائه،
والله سبحانه يقول: ﴿ كَتَبْنَا إِلَيْكَ مَبْرُوكًا لِيَذَّبُوا أَبْتِهَ ﴾ (١).

أما - والله - ما هو حفظُ حروفه، وإضاعةُ حدوده، وإنَّ أحدكم يقول:
قرأتُ القرآنَ ما أسقطتُ منه حرفاً، كذب - لعمرُ الله - لقد أسقطَ كله، والله
والله ما هؤلاء القراءُ ولا العلماءُ ولا الحكماءُ، ومتى كانتِ القراءُ تقولُ
مثلَ هذا؟ إنَّ الله - سبحانه وتعالى - يقول: ﴿ إِنَّا سَأَلْنَا عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴾ (٢)
يريدُ - جلَّ ثناؤه - العملَ به، وقال - عزَّ وجلَّ - : ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴾ (٣)؛
أي: حَلِّ حلاله، وحرِّم حرامه، ولقد تُوفِّي رسولُ الله ﷺ، وما استكمل
حفظَ القرآنِ من أصحابه - رضوانُ الله تعالى عليهم - إلا النفرُ القليلُ؛
استعظماً له، ومتابعةً أنفسهم بحفظِ تأويله، والعملِ بمُحكِّمه ومُشابهه.

وكان الحسنُ يقول: قُراءُ القرآنِ ثلاثةُ نفرٍ: قومٌ اتخذوه بضاعةً يطلبون
به ما عندَ الناسِ، وقومٌ أجادوا حُرُوفه، وضيعوا حُدُوده، استدرُّوا به
أموالَ الوُلاةِ، واستطالوا به على الناسِ، وقد كثرَ هذا الجنسُ من حَمَلَةِ
القرآنِ، فلا كَثُرَ اللهُ جَمْعَهُمْ، ولا أبعدَ غيرَهُمْ، وقومٌ قرؤوا القرآنَ،
لتدبُّروا آياته، وتداووا بدوائه، واستشفوا بشفايته، ووضعوه على الداءِ من
فلوبهم، فهُمُ الذين يُسْتَسْقَى بهمُ الغيثُ، وتُسَدَّى مِنْ أَجْلِهِمُ النِّعَمُ،
وتستدفعُ بدعائهم النِّقَمُ، أولئك حزبُ الله ألا إنَّ حزبَ الله همُ الغالبون.

ولقد رُوِيَ: أن وفداً من أهلِ اليمنِ قَدِموا على رسولِ الله ﷺ، فقرأ
عليهم القرآنَ، فبكوا، فقال أبو بكرٍ: هكذا كنَّا حتى قَسَتْ قلوبُنَا.

(١) سورة ص: ٢٩.

(٢) سورة المزمل: ٥.

(٣) سورة القيامة: ١٨.

وكان يقول: أيها الناس! عليكم بالنظر في المصحف، وقراءة القرآن فيها؛ فقد روي أن عثمان - رضي الله عنه - كان يقول: إني لأكره أن يمضي عليّ يوم لا أنظر فيه إلى عهد الله سبحانه، يعني: المصحف، فقيل له في ذلك، فقال: إنه مبارك، وكان يقرأ القرآن في المصحف تبرُّكاً به.

وكان لا يزال يرى المصحف في حجره، وكان من أحفظ أصحاب النبي ﷺ لكتاب الله - عز وجل -.

وقيل: قدّم للحسن - رحمه الله - عشاءه، فلما بدأ يأكل منه، سمع قارئاً يتلو: ﴿إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١١﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٢﴾﴾ (١) فقال: يا جارية! ارفعي عشاءك، وما زال يُردّد الآية ويبيكي بقية ليلته.

وقيل: بل بقي كذلك ثلاثاً حتى أحضر ولده قوماً من أصحابه، وأحضروا طعاماً، فواكلهم، وقرأ: ﴿وَأَتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢﴾﴾ (٢)، ثم قال: أوَاه! أي مرعظة وعظ الله سبحانه عباده لو كانوا قابلين؟! وقرأ: ﴿أَيُّودٌ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَةٌ ضَعْفَاءٌ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾ (٣).

ثم قال الحسن: هذا مثل ضربه الله لعباده، انتفع به وأبصره من أراد به برشاده؛ يقول الله سبحانه: مثل الرجل إذا كبرت سنه، ورق عظمه، وكثر

(١) سورة المزمل: ١٢-١٣.

(٢) سورة البقرة: ٢٨١.

(٣) سورة البقرة: ٢٦٦.

عِيَالَهُ، واحتاج لزرعه، فأحرقته النارُ أخوجَ ما كان إليه، كمثلي ابن آدم يقوم يوم القيامة، وهو غريانُ ظمانُ فقيرٌ إلى ما قَدَّمَ من عملٍ صالحٍ، توهم أنه له، فوجدَهُ قد أذهبتهُ التَّبعاتُ، وأسقطته الخطايا أخوجَ ما كان إليه، وأعظمَ ما كان رجاءً أن يعودَ نفعه عليه.

وقرأ: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾^(١)، فقال: كانوا يُدِيمُونَ صلاتهم إلى السَّحر، ثم يجلسون يستغفرون.

وسئِلَ عن ناشئة الليل، فقال: هي من أوَّلِهِ إلى الفجرِ.

وقرأ يوماً: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَمًا﴾^(٢)، ثم قال: هم المسلمون الذين لا يجهلون، وإن جهلَ عليهم حلُّموا، ولم يعجلوا.

وقرأ: ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَلِيمًا فِي عُنُقِهِ، وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا﴾^(٣) اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً^(٤)، ثم قال: ابن آدم! لقد عدلَ فيك من جعلك حسيبَ نفسك.

وقرأ: ﴿إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾^(٤). ثم قال: آخرُ العَدَدِ خُروجُ النَّفسِ، آخرُ العَدَدِ فِراقُ الأحيَّةِ والولَدِ، آخرُ العَدَدِ دُخولُ القبرِ، فالمبادرةُ عبادَ الله إلى الأعمالِ الصالحة، ثم يقول: عبادَ الله! إنما هي الأنفاسُ، لو قد حُبِسَتْ، لانقطعتِ الأعمالُ التي بها تتقربون، والحسناتُ التي عليها تتوكلون،

(١) سورة الذاريات: ١٧.

(٢) سورة الفرقان: ٦٣.

(٣) سورة الإسراء: ١٣-١٤.

(٤) سورة مريم: ٨٤.

فَرَحِمَ اللهُ امرأ حاسِبَ نَفْسَهُ، وخافَ رَبَّهُ، واتَّقَى ذَنْبَهُ.

وقرأ: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾^(١)،
فاضطربت رُكْبَتَاهُ، وجرت دموعُهُ، ثم قال: رُوِيَ أَنَّ النَّارَ تَأْكُلُ لُحُومَهُمْ
كُلَّ يَوْمٍ سَبْعِينَ مَرَّةً، ثم يقالُ لَهُمْ: عُدُّوا، فيعودون، اللهمَّ إنا نعوذُ بِكَ
مِنَ النَّارِ، وَمِنْ عَمَلٍ نَسْتَوْجِبُ بِهِ النَّارَ.

وقرأ: ﴿سَلِّمْ عَلَيْكُمْ يَمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾^(٢)، ثم قال: صَبَرُوا عَنْ
فُضُولِ الدُّنْيَا، وَزَهَدُوا فِي الْفَانِي، فَنَالُوا الْآخِرَةَ، وَحَسُنَتْ لَهُمُ الْعَاقِبَةُ.

وقرأ: ﴿وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا﴾^(٣)، فقال: رُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّهُ
كَانَ يَقُولُ: كَانَ الْكَثْرُ لَوْحًا مِنْ ذَهَبٍ، وَلَبَنَةٌ مِنْ ذَهَبٍ، فِيهِمَا مَكْتُوبٌ:
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، عَجَبًا لِمَنْ يَعْرِفُ الْمَوْتَ كَيْفَ يَفْرَحُ؟! وَلِمَنْ
يَعْرِفُ النَّارَ كَيْفَ يَضْحَكُ؟! وَلِمَنْ يَعْرِفُ الدُّنْيَا وَتَقَلُّبَهَا بِأَهْلِهَا كَيْفَ يَطْمَئِنُّ
وَيَسْكُنُ؟! وَلِمَنْ يُؤْمِنُ بِالْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ كَيْفَ يَتَعَبُ فِي طَلَبِ الرِّزْقِ
وَيُنْصَبُ؟! وَلِمَنْ يُؤْمِنُ بِالنَّارِ كَيْفَ يَعْمَلُ الْخُطَايَا؟! لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، مُحَمَّدٌ
رَسُولُ اللَّهِ^(٤).

وقرأ: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ
شُكُورًا﴾^(٥)، ثم قال: سُبْحَانَ اللَّهِ! مَا أَوْسَعَ رَحْمَةَ اللَّهِ، وَأَعَمَّ فَضْلَهُ،

(١) سورة النساء: ٥٦.

(٢) سورة الرعد: ٢٤.

(٣) سورة الكهف: ٨٢.

(٤) روى ذلك الطبري في «تفسيره» عن ابن عباس (٦/١٦)، ثم رجَّح خلافه. وانظر:
«تفسير البغوي» (٥/١٩٦)، طبعة دار طيبة.

(٥) سورة الفرقان: ٦٢.

وَأَلْطَفَ صُنْعَهُ! جعل لمن عجزَ في النهارِ خلفاً في الليلِ، ولمن قصرَ في الليلِ خلفاً في النهارِ.

وقرأ: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾^(١)، ثم قال: عجباً لمن يخافُ ملكاً، أو يتقي ظالماً بعدَ إيمانه بهذه الآية؟! أما - والله - لو أنَّ الناسَ إذا ابتلوا صبروا لأمرِ ربِّهم، لفرَّجَ اللهُ عنهم كُربَهُم، ولكنهم جزعوا من السيفِ، فوكلوا إلى الخوفِ، ونعوذُ باللهِ من شرِّ البلاءِ.

وقرأ: ﴿تَلْفَحُ وُجُوهُهُم نَارَ الْوَجْهِ فِيهَا كُلِّخُوتٌ﴾^(٢)، ثم قال: أيُّ منظرٍ عبادَ الله؟ ما أسوأه! فاحذروه.

وروي أن النارَ تُلْفَحُ وُجُوهَهُمْ لَفْحَةً، فلا تدعُ لَحْماً ولا جِلْداً، إلا أَلْقَتْهُ عَلَى الْعَرَاقِيبِ، وأبقتِ الوجوهَ كالِحَةً، ثم يبكي ويقولُ: اللهم بك نستعيدُ من عذابِ النارِ وبئسَ المصيرُ.

وقرأ: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾^(٣)، ثم قال: إن العبدَ إذا قالَ قولاً حسناً، وعملَ عملاً صالحاً، رفعَ اللهُ تعالى قوله بعمله، وإن قالَ حسناً، وعملَ عملاً سيئاً، ردَّ اللهُ سبحانه القولَ بالعملِ.

وقرأ: ﴿كَانْتُمْ يَوْمَ يَرْزِقُونَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبِسُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنْ نَّهَارٍ بَلَّغٌ فَمَهْلُ يَهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الْفَاسِقُونَ﴾^(٤): الذين كسبوا الدنيا الحرام، وأنفقوها إسرافاً وتبذيراً

(١) سورة الأعراف: ١٣٧.

(٢) سورة المؤمنون: ١٠٤.

(٣) سورة فاطر: ١٠.

(٤) سورة الأحقاف: ٢٥.

في الشهوات ﴿ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴾^(١) .

وقرأ: ﴿ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾^(٢) ، فقال: ابن آدم فاسق في الدنيا، حائد حين لات حيدة، ولا يمكن هرب ولا غيبة.

وكان إذا قرأ: ﴿ كَانَتْهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحًى ﴾^(٣) يقول: ابن آدم! ما لك في غدوة أو روحة؟! ما تصبر على المعصية!؟ .

وكان إذا قرأ: ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾^(٤) ، يقول: كان القوم - والله - أهل تراؤف وتراحم، وإنا لنفي خلف كجلد الأجر.

وكان إذا قرأ: ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴾^(٥) ، قال: رحم الله عبداً كسب من طيب، وأنفق قسداً، وقدم ليوم فقره وشدة حاجته فضلاً، ثم يقول: وجهوا - رحمكم الله - فصول أموالكم حيث وجهها الله ورسوله، وضعوها حيث وضعها؛ فإن الذين كانوا من قبلكم، كانوا يأخذون قليلاً، ويباعون من الله - جل ثناؤه - أنفسهم بالفضل.

وكان إذا تلا: ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ ﴾^(٦) ، قال: يعملون

(١) سورة الشعراء: ٢٢٧ .

(٢) سورة ق: ١٩ .

(٣) سورة النازعات: ٤٦ .

(٤) سورة الحشر: ١٠ .

(٥) سورة الفرقان: ٦٧ .

(٦) سورة المؤمنون: ٦٠ .

ما يعملون من برٍّ، ويقدمون ما يقدمون من خيرٍ، وهم خائفون ألا يُنجيهم ذلك من عذابِ الله .

وكان إذا تلا: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾^(١)، قال: ويح ابن آدم! ما خلق الله خلقاً يكابد من هذا العيش ما يكابد هو .

وكان إذا تلا: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً﴾^(٢)، قال: لنرزقته طاعةً يجد لذتها في قلبه .

وروي أنه قال: لنرزقته رزقاً لا نعدبه عليه، ثم يقول: كل حياة ابن آدم - والله - مرة؛ إلا حياته في الجنة .

وكان إذا تلا: ﴿وَسَأَلَهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ﴾^(٣) إلى آخر الآية، يقول: حوت حرم الله تعالى عليهم صيده يوماً من أيام الجمعة، وأحلّه فيما سوى ذلك من الأيام، وكان يأتيهم يوم التحريم كالمُحاصر ما يمتنع؛ من أجل المِحنة والبليّة والاختبار بالطاعة، فجعلوا يلتهون بأخذه، ويُمسكون مخافةً وتعبدًا .

وقال: ما همّ عبدٌ بذنّبٍ إلا وافقهم فيما عزموا عليه، فأخذوه، وأكلوه - والله - أوخَمَ أكلةً أكلها قومٌ، فنودوا ثلاثاً وهم نائمون، ثم نُودوا: يا أهل القرية! فانتبه الرجال والنساء والصبيان، فقيل لهم: كونوا قردة خاسئين؛ فكانوا كذلك .

وايمُ الله! لِحُرْمَةِ عَبْدٍ مُؤْمِنٍ يُقْتَلُ ظُلْمًا أعظمُ عند الله من كلِّ حوتٍ

(١) سورة البلد: ٤ .

(٢) سورة النحل: ٩٧ .

(٣) سورة الأعراف: ١٦٣ .

خُلِقَ، ولكن جعل الله تعالى مَوْعِدَ قوم الساعة ﴿وَالسَّاعَةُ أَذَى وَأَمْرٌ﴾^(١).
 وقرأ: ﴿فَأَنمَأْهَى زَجْرَةٌ وَحِدَةٌ﴾^(٢) ﴿فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ﴾^(٣)، ﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً
 وَحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَمِيدُونَ﴾^(٤)، فكان يقول: أيها الناس! الزجرة من الغضب،
 فَمَنْ اتَّقَى اللَّهَ، فَلْيَحْذَرُ غَضَبَهُ.

وكان يقول إذا تلا: ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ﴾^(٥) ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ
 حَمِيمٍ آبِينٍ﴾^(٦)، ثم قال: مَعَشَرَ النَّاسِ! ما ظَنُّكُمْ بقوم وَقَفُوا في يوم كان
 مقداره خمسين ألف سنة، فلما انقطعت أعناقهم من الجوع والعطش
 والخوف، أَمَرَ بهم إلى نارٍ وجحيمٍ وحميمٍ؟! اللهم بك العيادُ، وأنت
 المعادُ، وإليك اللجأُ، وَعَلَيْكَ التَّوَكُّلُ، فَنجِّنا برحمتك من عذابك
 يا غفوراً.

وكان إذا تلا: ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾^(٧)، قال: رَحِمَ اللَّهُ قوماً
 كان خُشوعُهُم في القلوب، فغَضُّوا أَبْصَارَهُمْ، وَحَفِظُوا فُرُوجَهُمْ، وَتَجَنَّبُوا
 المحارمَ، فنالوا أعلى الدرجات.

وسئل عن قولِ الله - عزَّ وجلَّ - : ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾^(٨)،
 فقال: من جاء ب: لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأنَّ مُحَمَّدًا ﷺ
 عبده ورسوله، مُخْلِصاً بها قلبه، فله عند الله - عزَّ وجلَّ - الجنة.

(١) سورة القمر: ٤٦.

(٢) سورة النازعات: ١٣-١٤.

(٣) سورة يس: ٢٩.

(٤) سورة الرحمن: ٤٣-٤٤.

(٥) سورة المؤمنون: ٢.

(٦) سورة الأنعام: ١٦٠.

وتلا: ﴿ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ ﴾^(١)، ثم قال: إنما جزاء من قال: لا إله إلا الله، أن يدخل الجنة.

وقرأ: ﴿ يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ﴾^(٢)، فقال: ذلك المؤمن، الحذر، الفطن، الكيس، الذي علم أن له معاداً، فقدم عملاً صالحاً، ثم قدم عليه فسرة، وهو يوم: ﴿ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَلْبِثُنِي كُتُّ قُرْبًا ﴾^(٣).

وتلا: ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾^(٤)، فقال: هو الذنب على الذنب حتى يموت، ويسود القلب.

وتلا: ﴿ وَلَا تَسْتَنْتِمْ تَسْتَكْبِرُوا ﴾^(٥)، ثم قال: لا تستكثر عملك؛ فإنك لا تعلم ما قبل منه، وما رد فلم يقبل.

وقرأ: ﴿ أَلْهَنَكُمْ التَّكَاثُرُ ﴾^(٦)، ثم قال: إنا لله وإنا إليه راجعون، ألهي - والله - عن نار الخلود، وشغل عن نعيم لا يبىد، ثم قرأ: ﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾^(٧)، ثم قال: أيها الناس! لو توعدكم مخلوق يموت، ما استقر بكم القرار، فكيف بوعد ملك الملوك، والحي الذي لا يموت؟! .

وكان إذا قام بالقرآن، وانتهى إلى هذه السورة، لم يتجاوزها، ولا يزال يرددّها ويبكي إلى أن ينقطع نحيبُهُ - رحمة الله عليه، ورضوانه لديه - .

(١) سورة الرحمن: ٦٠ .

(٢) سورة النبأ: ٤٠ .

(٣) سورة النبأ: ٤٠ .

(٤) سورة المطففين: ١٤ .

(٥) سورة المدثر: ٦ .

(٦) سورة التكاثر: ١ .

(٧) سورة التكاثر: ٣ .

الفصل السابع

في مكاتبة الخلفاء ومعاملاته مع الأمراء وولاية الأمور

رُوِيَ عَنْهُ - رَحِمَهُ اللهُ - أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: إِنَّ اللَّهَ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - أَخَذَ عَلَى الْخُلَفَاءِ، وَالْأُمَرَاءِ، وَالْحُكَّامِ ثَلَاثَةَ أَشْيَاءَ، فَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِ اللَّهِ مِنْهُمْ، نَجَا، وَمَنْ قَصَّرَ، هَلَكَ، أَخَذَ عَلَيْهِمْ: أَلَّا يَتَّبِعُوا الْهَوَى، وَلَا يَخْشُوا النَّاسَ، وَيَخْشَوْهُ، وَأَلَّا يَشْتَرُوا بِآيَاتِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا.

وَكَانَ إِذَا ذَكَرَ الْمُلُوكَ قَالَ: لَا تَنْظُرُوا إِلَى شَرَفِ عَيْشِهِمْ، وَلِيْنِ رِيَاثِهِمْ، وَلَكِنْ انظُرُوا إِلَى سُرْعَةِ ظَعْنِهِمْ، وَسُوءِ مُنْقَلَبِهِمْ.

وَاتَّصَلَ بِهِ عَنْ بَعْضِهِمْ: أَنَّهُ كَانَ يَأْكُلُ الْخَسِيْنَ، وَيَلْبَسُ الدُّنْيَى مِنَ الثِّيَابِ، فَقَالَ: يَا وَيْحَهُ: عَلَامَ جُبِي لهُ مِنَ الْخَرَاجِ، وَمَلَكَ مِنْ أَطْرَافِ الْبِلَادِ؟ فَقَالُوا: إِنَّهُ يَفْعَلُ ذَلِكَ بُخْلًا، فَقَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي حَرَّمَ مِنْ دُنْيَاهُ مَا لِأَجْلِهِ تَرَكَ دِينَهُ.

وَكَانَ يَقُولُ: إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ شَرًّا، جَعَلَ أُمَرَاءَهُمْ سُفَهَاءَهُمْ، وَفِيئَتَهُمْ عِنْدَ بُخْلَائِهِمْ.

وَكَانَ يَقُولُ: لَقَدْ حَدَّثْتُ عَنْ بَعْضِ الصَّحَابَةِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ - أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: إِنَّ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ أَنْ يَكُونَ فِي الْأَرْضِ أُمَرَاءُ فَجَرَّةٌ، وَوُزَرَاءُ

كذبة، وأمناء عوانة، وأماماء فسقة، وعرفاء ظلمة، وإني لا تخوف أن يكون وقتنا هذا.

وقيل: أحضر النضر بن عمرو - وكان والياً على البصرة - الحسن يوماً، فقال: يا أبا سعيد! إن الله - عز وجل - خلق الدنيا وما فيها من رياضها، وبهجتها، وزينتها، لعباده، وقال - عز وجل -: ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾^(١)، وقال عز من قائل: ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ، وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾^(٢)، فقال الحسن: أيها الرجل! اتق الله في نفسك، وإياك والأمانى التي ترخصت فيها؛ فتهلك، إن أحداً لم يُعط خيراً من خير الدنيا، ولا من خير الآخرة بأمنيته، وإنما هي داران، من عمل في هذه، أدرك تلك، ونال ما قُدِّر له منها، ومن أهمل نفسه، خسرهما جميعاً، إن الله سبحانه اختار محمداً ﷺ لنفسه، وبعثه برسالته ورحمته، وجعله رسولاً إلى كافة خلقه، وأنزل عليه كتاباً مهيمناً، وحد له في الدنيا حدوداً، وجعل له فيها أجلاً، ثم قال - عز وجل -: ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾^(٣)، وأمرنا أن نأخذ بأمره، ونهتدي بهديه، وأن نسلك طريقته، ونعمل بسنته، فما بلغنا إليه، فبفضله ورحمته، وما قصرنا عنه، فعلينا أن نستعين ونستغفر، فذلك باب مخرجنا، وأما الأمانى، فلا خير فيها، ولا في أحد من أهلها، فقال النضر: يا أبا سعيد! إن الله - عز وجل - قدر علينا ما شاء، وإنا لنحب ربنا.

(١) سورة الأعراف: ٣١.

(٢) سورة الأعراف: ٣٢.

(٣) سورة الممتحنة: ٦.

فقال الحسنُ : لقد قال ذلك قومٌ على عهدِ رسولِ اللهِ ﷺ ، فأنزل اللهُ تعالى عليه : ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾ (١) . فجعل سبحانه أتباعه - عليه السلام - علماً للمحبة ، وأكذب من خالف ذلك ، فاتق الله يا أيها الرجلُ في نفسك ، وایمُ اللهُ ! لقد رأيتُ أقواماً ، كانوا قبلك في مكانك يعلون المنايرَ ، وتُهزُّ لهم المراكبُ ، ويجرُّون الذیولَ بطراً ورتاء الناسِ ، يبنون المدرَّ ، ويؤثرون الأثرَ ، ويتنافسون في الثيابِ ، أخرجوا من سلطانهم ، وسلبوا ما جمَعوا من دنياهم ، وقدموا على ربهم ، فنزلوا على أعمالهم ، فالويلُ لهم ، والويلُ لهم يومَ التغابنِ ؛ ويا ويحهم ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴾ (٢) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿٣١﴾ وَصَجِيئِهِ وَبَنِيهِ ﴿٣٢﴾ لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٣﴾ .

وقيل : دخلَ عليه يوماً آخرَ ، فقال : أيها الأميرُ ! أئدك اللهُ ، إن أخاك من نصحك في دينك ، ويصركُ عيوبك ، وهداك إلى مرشدك ، وإن عدوك من غركُ ومناك .

أيها الأميرُ ! اتقِ اللهُ ؛ فإنك أصبحتُ مخالفاً للقوم في الهدى والسيرة ، والعلانية والسريرة ، وأنت مع ذلك تَتَمَنَّى الأمانِيَّ ، فترجِّح في طلب العذرِ .

والناسُ - أصلحك اللهُ - طالبانِ : فطالبُ دُنْيَا ، وطالبُ آخِرَةِ . وایمُ اللهُ ! لقد أدركَ طالبُ الآخرةِ واستراحَ ، وتعبَ الآخرُ وحرمَ ، فاحذرُ أيها الأميرُ أن تسعى لِطَلْبِ الثاني ، وتركَ الباقي ، فتكون من النادمين .

(١) سورة آل عمران : ٣١ .

(٢) سورة عبس : ٣٤ - ٣٧ .

واعلم أن حكمة أقال:

أين الملوك التي عن حنظلها غفلت حتى سقاها بكأس الموت ساقبها
نعوذ بالله من الحور بعد الكور^(١)، ومن الضلالة بعد الهدى.

لقد حدثت أئها الأمير عن بعض الصالحين أنه كان يقول: كفى المرء
جناية أن يكون للخونة أميناً، وعلى أعمالهم معيناً.

وقيل لأخر فقير: ألا تذهب إلى السلاطين، فتصيب من خيرهم؟
فقال: نعوذ بالله مما يكره تعالى، لأن أموت مؤمناً مهزولاً؛ أحب إلي من
أن أموت منافقاً سميناً.

وأحضر ابن هبيرة^(٢) الحسن والشعبي، فقال لهما: أصلحكما الله، إن
أمير المؤمنين يزيد بن عبد الملك يكتب إلي كُتُباً، أعرف في تنفيذها
الهلكة، فأخاف إن أطعته غضب الله، وإن عصيته، لم آمن سطوته، فما
تريان لي؟ فقال الحسن للشعبي: يا أبا عمرو! أجب الأمير، فرفق له في
القول، وانحط في هوى ابن هبيرة.

وكان ابن هبيرة لا يستشفي دون أن يسمع قول الحسن، فقال: قل
ما عندك يا أبا سعيد، فقال الحسن: أوليس قد قال الشعبي؟ فقال ابن
هبيرة: ما تقول أنت؟ فقال: أقول: - والله - يوشك أن ينزل بك ملك من
ملائكة الله، فظ غليظ لا يعصي الله ما أمره، فيخرجك من سعة قصرك،
إلى ضيق قبرك، فلا يغني عنك ابن عبد الملك شيئاً، فبكى عمر بن هبيرة

(١) الحور: النقصان والرجوع، الكور: الزيادة. انظر: «السان العرب» (٥/١٥٥).

(٢) عمر بن هبيرة بن معاوية بن سكين: الأمير أبو مثنى الفزارقي الشامي، أمير العراقيين،
ووالد أميرها يزيد. توفي سنة سبع ومئة تقريباً.

بكاءً شديداً، وأجزلَ جائزة الحسن، وقصّرَ في جائزة الشعبي.

ثم خرجَ الشعبيُّ إلى المسجد، فلما اجتمعَ أهلُ مجلسه، قال: أيها الناس! من استطاعَ منكم أن يؤثّرَ الله - عزَّ وجلَّ - على خلقه، فليُفعلْ؛ إنَّ الأميرَ ابنَ هبيرةَ أرسلَ إليَّ وإلى الحسنِ، فوالذي نفسي بيده! ما علمَ الحسنُ شيئاً جهلتهُ، ولكن راعيتُ ابنَ هبيرةَ، وأردتُ رضاهُ، وقصّرتُ في قولي له، فأقصاني اللهُ وأبعدني، وكان الحسنُ معَ الله - عزَّ وجلَّ -، فقربتهُ وأدناهُ، وسخّرَ ابنَ هبيرةَ، فأثّرهُ وحبّاهُ.

وقيل: خرجَ الحسنُ يوماً من عندِ ابنِ هبيرةَ، فإذا هوَ بالقرّاءِ على بابهِ، فقال: ما جاءَ بكم هاهنا؟ لا كثرَ اللهُ جمْعكم، تريدونَ الدُخولَ على هؤلاءِ الجربى! فواللهِ ما مُخالطتُهُم مُخالطةَ الأبرارِ، ولا مجالستُهُم مجالسَ الأخيارِ، تفرّقوا فرّقَ اللهُ بينَ أرواحكم وأجسادكم، ولا كثرَ اللهُ في المسلمينِ مثلكم، حدّوتمَ نعالكم، وشمّرتُم ثيابكم، وجزّرتُم رؤوسكم، وكحلّتم أعينكم، فكنتُم شرَّ عصابةٍ، حلّقوا الشواربَ للطّمعِ، فضحّتمُ القرّاءَ، لا جمّعَ اللهُ شملكم.

أما - والله - لو زهدتُم فيما عندهم، لرغبوا فيما عندكم، فأبعدَ اللهُ من أبعدَ، وما أحسبهُ غيركم، ثم انصرفَ مُغضباً.

وروي أن الحجاجَ^(١) بنى داراً بواسطِ، وأحضرَ الحسنَ ليراها، فلما دخلها، قال: الحمدُ لله، إنَّ الملوكةَ ليروُنَ لأنفسِهِم عزّاً، وإنا لنرى فيهم

(١) الحجاجُ بنُ يوسفَ بنِ الحكمِ الثقفِي، أبو محمدٍ، قائدٌ وخطيبٌ مشهورٌ، وُلد ونشأ في الطائف، ولأه عبدُ الملكِ بنُ مروانَ إمارةَ العراقِ، فثبتت له الولايةُ عشرين سنةً، توفى بواسطِ سنة (٩٥ هـ).

كُلَّ يَوْمٍ عِبْرًا، يَمَسُّ أَحَدُهُمْ إِلَى قَصْرِ فَيْشِيذَهُ، وَإِلَى فَرَشِ فَيْنَجْدَهُ، وَإِلَى
 مَلَابِسٍ وَسَرَكَبٍ فَيَحْسِنُهَا، ثُمَّ تَحْفُ بِهَ ذَنَابٌ طَمَعٌ، وَفَرَّاشُ نَارٍ،
 وَأَصْحَابٌ سُوءٍ، فَيَقُولُ: انظُرُوا مَا صَنَعْتُ. فَقَدْ رَأَيْنَا أَيُّهَا الْمَغْرُورُ! فَكَانَ
 مَاذَا يَا أَفْسَقَ الْفَاسِقِينَ؟ أَمَا أَهْلُ السَّمَوَاتِ، فَقَدْ مَمَّتْكَ، وَأَمَا أَهْلُ
 الْأَرْضِ، فَقَدْ لَعَنُوكَ، بَنَيْتَ دَارَ الْفَنَاءِ، وَخَرَّبْتَ دَارَ الْبَقَاءِ، وَعَزَّزْتَ فِي دَارِ
 الْغُرُورِ لِتَذِلَّ فِي دَارِ الْخُبُورِ، ثُمَّ خَرَجَ وَهُوَ يَقُولُ: سَبِحَانَهُ أَخَذَ عَهْدَهُ عَلَى
 الْعُلَمَاءِ لِيَسَيِّئَنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا يَكْتُمُونَهُ، وَبَلَغَ الْحَجَّاجَ مَا قَالَ، فَاشْتَدَّ غَضَبُهُ،
 وَجَمَعَ أَهْلَ الشَّامِ، فَقَالَ: يَشْتُمُنِي عُبَيْدُ أَهْلِ الْبَصْرَةِ وَأَنْتُمْ حُضُورٌ، فَلَا
 تُنْكِرُونَ! ثُمَّ أَمَرَ بِأَحْضَارِ الْحَسَنِ، فَجَاءَ وَهُوَ يُحْرِكُ شَفْتَيْهِ بِمَا لَمْ يُسْمَعْ،
 حَتَّى دَخَلَ عَلَى الْحَجَّاجِ، فَقَالَ: يَا أَبَا سَعِيدٍ! أَمَا كَانَ لِإِمَارَتِي عَلَيْكَ حَقٌّ
 حِينَ قُلْتَ مَا قُلْتَ؟ فَقَالَ: يَرْحَمُكَ اللَّهُ أَيُّهَا الْأَمِيرُ؛ إِنْ مَنْ خَوْفَكَ حَتَّى
 تَبْلُغَ أَمْنَكَ أَرْفَقُ بِكَ، وَأَحَبُّ فِيكَ مِمَّنْ أَمَّنَكَ حَتَّى تَبْلُغَ الْخَوْفَ، وَمَا أَرَدْتُ
 الَّذِي سَبَقَ إِلَى وَهْمِكَ، وَالْأَمْرَانِ بِيَدِكَ: الْعَفْوُ وَالْعُقُوبَةُ، فَافْعَلِ الْأَوْلَى
 بِكَ، وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلْ، وَهُوَ حَسْبُنَا وَنِعْمَ الْوَكِيلُ. فَاسْتَحْيَا الْحَجَّاجُ مِنْهُ،
 وَاعْتَذَرَ إِلَيْهِ، فَأَكْرَمَهُ وَحَبَّاهُ.

وقيل: جاء رجلٌ من الشُّرَطِ كان على هِنَاءٍ إِلَى الْحَسَنِ، فَقَالَ: عَزَمْتُ
 عَلَى تَرْكِ النَّبِيذِ، فَقَالَ الْحَسَنُ: هَلَا بَدَأْتَ بِتَرْكِ مَا هُوَ أَوْلَى بِكَ، آخِرِ التَّوْبَةِ
 مِنَ النَّبِيذِ حَتَّى يَكُونَ هُوَ شَرًّا عَمَلِكَ، وَحِينَئِذٍ فَتَبُّ مِنْهُ.

وقيل: سَمِعَ الْحَسَنُ رَجُلًا مِنْ أَصْحَابِ الْحَجَّاجِ يَذْكُرُ عَلِيًّا - عَلَيْهِ
 السَّلَامُ - بِسُوءٍ، فَقَالَ: لَقَدْ اسْتَوْجَبَهَا، فَقَالَ الرَّجُلُ: النَّارَ يَا أَبَا سَعِيدٍ؟
 فَقَالَ: نَعَمْ! وَبِنَسِ الْمَصِيرِ. قَالَ: فَهَلْ تَوْبَةٌ عَافَاكَ اللَّهُ؟ فَقَالَ الْحَسَنُ:

ثَكَلْتِكَ أَثْمَكَ، وَهَلْ لَكَ إِنْ لَمْ تَتَّبِعْ بِعَذَابِ اللَّهِ مِنْ طَاقَةٍ؟! إِنْ اللَّهُ يُحِبُّ
التَّوَابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ.

قيل: لَمَّا وَلِيَ ابْنُ أَرْطَاةَ^(١) البصرة، عَزَمَ عَلَى أَنْ يُوَلِّيَ الْحَسَنَ
الْقَضَاءَ، فَهَرَبَ الْحَسَنُ وَاسْتَتَرَ، وَكَتَبَ إِلَيْهِ: أَمَا بَعْدُ: أَيُّهَا الْأَمِيرُ! فَإِنَّ
الْكَارَةَ لِلْأَمْرِ غَيْرُ جَدِيرٍ بِقَضَاءِ الْوَاجِبِ فِيهِ، وَإِنَّ الْعَامِلَ لِلْعَمَلِ بِغَيْرِ نِيَّةٍ
حَقِيقٌ أَلَّا يُعَانَ عَلَيْهِ، وَلَكَ فِي الْمُخْتَارِينَ لِلْأَمْرِ الَّذِي دَعَوْتَنِي إِلَيْهِ كِفَايَةٌ
وَقَنَاعَةٌ، وَقَصْدُكَ إِيَّاهُمْ، وَتَعْوِيلُكَ عَلَيْهِمْ أَوْلَى بِكَ، وَأَصْوَنُ لِعَمَلِكَ، وَإِنَّهُ
لَا خَيْرَ فِي الْاسْتِعَانَةِ بِمَنْ لَا يَرَى أَنْ الْعَمَلَ الَّذِي يُدْعَى إِلَيْهِ وَاجِبٌ عَلَيْهِ،
وَلَا فَرَضٌ لَازِمٌ لَهُ، فَعَافِنِي أَيُّهَا الْأَمِيرُ عَافَاكَ اللَّهُ، وَأَحْسِنُ إِلَيَّْ بِتَرْكِ
التَّعَرُّضِ لِي؛ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا. فَأَعْفَاهُ، وَأَكْرَمَهُ،
وَقَالَ: وَاللَّهِ مَا كُنْتُ لِأَبْتَلِيَهُ بِمَا يَكْرَهُهُ.

رُوِيَ أَنَّ عُمَرَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ^(٢) - رَحِمَهُ اللَّهُ - كَتَبَ إِلَى الْحَسَنِ: اكْتُبْ
إِلَيَّ يَا أَبَا سَعِيدٍ بِمَوْعِظَةٍ وَأَوْجِزْ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ:

أَمَا بَعْدُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ! فَكَأَنَّ الَّذِي كَانَ لَمْ يَكُنْ، وَكَأَنَّ الَّذِي هُوَ
كَائِنٌ قَدْ نَزَلَ، وَاعْلَمْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَنَّ الصَّبْرَ وَإِنْ أَذَاقَكَ تَعَجِيلَ مَرَارَتِهِ،

(١) ابْنُ أَرْطَاةَ: حَجَّاجُ بْنُ أَرْطَاةَ بْنِ ثَوْرٍ بْنِ هُبَيْرَةَ بْنِ شَرَاهِيلَ بْنِ كَعْبٍ، مَفْتِي الْكُوفَةِ مَعَ
الْإِمَامِ أَبِي حَنِيفَةَ، وَوُلِدَ فِي حَيَاةِ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، وَوَلِيَ قَضَاءَ الْبَصْرَةِ، وَكَانَ جَائِزَ
الْحَدِيثِ، إِلَّا أَنَّهُ كَانَ صَاحِبَ إِسْرَالٍ، وَتَدَلَّسَ، مَاتَ فِي الرَّيِّ سَنَةَ خَمْسٍ وَأَرْبَعِينَ
وَمِثَّةً. «سِيرَ أَعْلَامِ النَّبَلَاءِ» (٧/ ٦٨ - ٧٥).

(٢) هُوَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ مَرْوَانَ بْنِ الْحَكَمِ بْنِ أَبِي الْعَاصِ بْنِ أُمِيَّةَ، الْإِمَامُ الْحَافِظُ
الْعَلَامَةُ، الْمَجْتَهِدُ، الزَّاهِدُ، أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ، وَكَانَ مِنَ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ، وَوَلِيَ إِمْرَةَ
الْمَدِينَةِ لِلْوَلِيدِ، وَوَلِيَ الْخِلَافَةَ بَعْدَهُ. مَاتَ فِي رَجَبِ سَنَةِ إِحْدَى وَمِثَّةٍ وَوَلَهُ أَرْبَعُونَ
سَنَةً، وَكَانَتْ مَدَّةَ خِلَافَتِهِ سِتِّينَ وَنِصْفَ السَّنَةِ.

فَلَنِعْمَ مَا أَغْقَبَكَ مِنْ وَلِيْبِ حِلَاوَتِهِ، وَاعْلَمْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَنَّ الْفَائِزَ مَنْ
حَرَّصَ عَلَى السَّلَامَةِ فِي دَارِ الْإِقَامَةِ، وَفَازَ بِالرَّحْمَةِ فَأَدْخَلَ الْجَنَّةَ.

وقيل: كتبَ عمرُ بنُ عبد العزيزِ إلى الحسنِ: اكتبْ إليَّ يا أبا سعيدٍ بذيِّ
الدنيا، فكتبَ إليه:

أما بعدُ: يا أميرَ المؤمنين! فإنَّ الدنيا دارٌ ظُننَ وانتقالِ، وليستْ بدارِ
إقامةٍ على حالٍ، وإنما أنزلَ إليها آدمُ عُقوبةً، فأحذرَها؛ فإنَّ الراغِبَ فيها
تاركٌ لها، والغنيُّ فيها فقيرٌ، والسعيدُ من أهلِها مَنْ لم يتعرَّضْ لها؛ إنها إذا
اختبرَها اللبيبُ الحاذقُ، وجدَّها تذلُّ مَنْ أعزَّها، وتفرَّقَ مَنْ جمَّعها، فهي
كالشَّمِّ يأكلُهُ مَنْ لا يعرفه، ويرغبُ فيه مَنْ يجهلُهُ، وفيه - والله - حُتْفُهُ،
فكنْ فيها يا أميرَ المؤمنين كالمدَّوي جِراحَهُ، يَحْتَمِي قليلاً؛ مخافةً
ما يكرهُ طويلاً، الصبرُ على لأوائِها أيسرُ من احتمالِ بلائِها، واللبيبُ مَنْ
حذرَها ولم يَغترَّ بِها؛ فإنها غدارةٌ حمالةٌ خداعةٌ، قد تعرَّضتْ بآمالِها،
وتزيَّنتْ لخطابِها، فهي كالعروسِ، العيونُ إليها ناظرةٌ، والقلوبُ عليها
والهةٌ، وهي - والذي بعثَ مُحَمَّدًا بالحقِّ - لأزواجِها قاتلةٌ، فاتقِ أئِها
الأميرُ صرعَتَها، واحذرْ غيرَها؛ فالرخاءُ فيها موصولٌ بالشدةِ والبلاءُ،
والبقاءُ مُؤدِّ إلى الهلكةِ والفناءِ.

واعلمْ يا أميرَ المؤمنين أنَّ أمانِيَّها كاذبةٌ، وآمالُها باطلةٌ، وصَفْوُها
كدرٌ، وعيشُها نكدٌ، وتاركُها مُوفِّقٌ، والمُتمسِّكُ بِها هالكٌ غريقٌ، والفطنُ
اللبيبُ مَنْ خافَ ما خوَّفَهُ اللهُ، وحذرَ ما حذرَهُ، وقَدَّمَ مِنْ دَارِ الْفَنَاءِ إلى
دارِ الْبَقَاءِ، فعندَ الموتِ يأتيهِ اليقينُ.

الدنيا - والله - يا أميرَ المؤمنين - حُلْمٌ، وهي دارٌ عُقوبيةٌ، لها يَجْمَعُ مَنْ
لا عقلَ له، وبها يَهْتَمُّ مَنْ لا عِلْمَ عندهُ، والحازمُ اللبيبُ مَنْ كان فيها

كالمُداوي جراحه، يَصْبِرُ على مرارة الدواء؛ لسا يزجو من العافية،
ويخاف من سوء عاقبة الدار.

والدنيا - وايمُ الله يا أمير المؤمنين - حُلْمٌ، والآخرةُ يَقْظَةٌ، والمتوسِّطُ
بينهما الموتُ، والعبادُ في أضغاثِ أحلامٍ، وإني قائلٌ لك يا أمير المؤمنين
ما قال الحكيمُ:

وَإِنْ تَنَجَّ مِنْهَا تَنَجُّ مِنْ ذِي عَظِيمَةٍ وَإِلَّا فإني لا إخالُك ناجياً

ولما وصل كتابه إلى عُمر بن عبد العزيز، بكى وانتحب حتى رَحِمَهُ مَنْ
كان عنده، وقال: يَرْحَمُ اللهُ الحَسَنَ؛ فإنه لا يزالُ يُوقِظُنَا مِنَ الرِّقْدَةِ،
وَيُنَبِّهُنَا مِنَ الغَفْلَةِ، واللهِ هوَ مِنْ مُشْفِقِي ما أَنْصَحَهُ! وواعِظِ ما أَصْدَقَهُ
وأفصَحَهُ!

وكتبَ إليه عمرُ بنُ عبدِ العزيز: وصلتُ مواعِظُكَ النافعةَ، فأشفيتُ
بها، ولقد وصفتَ الدنيا بصفتيها، والعاقلُ مَنْ كان فيها على وَجَلٍ، فكانَ
كُلُّ مَنْ كُتِبَ عليه الموتُ من أهلِها قد مات، والسلامُ عليك ورحمةُ الله
وبركاته.

فلما وصلَ كتابه إلى الحَسَنِ قال: اللهُ أميرُ المؤمنينَ مِنْ قائلِ حَقِّ،
وقابلَ وَغَظاً، لقد أعظمَ اللهُ - عزَّ وجلَّ - بِولايَتِهِ المِنَّةَ، وَرَحِمَ بِسُلْطَانِهِ
الأُمَّةَ، وجعلَهُ بركةَ ورحمةَ.

وكتبَ إليه:

أما بعدُ: فإنَّ الهَوْلَ الأعْظَمَ، والأمرَ المطلوبَ، أمانك، ولا بُدَّ مِنْ
مُشاهدَتِكَ ذلك، إما بِنِجاةٍ أو بِعَظَبٍ.

وكتبَ إليه - رحمةُ اللهِ عليه -: احذِرْ يا أميرَ المؤمنينَ أن تكونَ فيها

مَلَكَكَ اللهُ مِنْ أَمْرِ مَبَادِهِ دَهْدَاهِ اثْنَتَيْ مِثْرَيْنِ مَوْلَاهِ، وَاسْتَحْفَظَهُ مَالَهُ وَعِيَالَهُ، فَبَدَرَ
الْمَالَ، وَسَرَّخَ الْعِيَالَ، وَافْقَرَ أَهْلَهُ، وَأَتْلَفَ مَالَهُ.

واعلم يا أمير المؤمنين أن الله - جل ثناؤه - أمر أنبياءه أن يزجروا عباده
عن الخبائث، وينهئوهم عن الفواحش، فكثرت بهم إذا من قبلهم من جميل
الفيض لهم.

اذكر يا أمير المؤمنين قلة أشياعك عند ربك، وأنصارك عليه يوم
حشرِك، فتزوّد ليوم الفرع الأكبر.

واعلم يا أمير المؤمنين أن لك منزلاً غير منزلك الذي أنت فيه، وبه
يطول مقامك، وعنه يفارقك أحبائك، يلقونك فيه وحيداً، ويُسلمونك إليه
فريداً، فتزوّد يا أمير المؤمنين ليوم يفر المرء من أخيه، وأمه وأبيه،
وصاحبه وبنيه، وأذكر إذا بُعِثَ ما في القبور، وحُصِّلَ ما في الصدور، يوم
تكون الأسرار ظاهرة، وقد نُشِرَ الكتاب الذي لا يُغادر صغيرة ولا كبيرة إلا
أحصاها، فاعمل الآن وأنت في مهل قبل حلول الأجل، وانقطع العمل،
واحذر يا أمير المؤمنين أن تحكم في عباد الله بحكم الجاهلين، أو تسلك
بهم سبيل الظالمين، ولا تسلط المستكبرين على المستضعفين؛ فإنهم
لا يرقبون في مؤمن إلا ولا ذمة.

فقد روي أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ وَلِيَ ظَالِمًا، أَوْ أَعَانَهُ، فَقَدْ وَلِيَ
الْإِسْلَامَ ظَهْرَهُ»، فاتق الله أن تبوء بأوزارك وأوزار مع أوزارك، وتحمل
أثقالك وأثقالاً مع أثقالك، ولا يغرّنك قوم يتنعمون ببؤسك، ويأكلون
الطيبات بذهب طيباتك، ولا تنظر يا أمير المؤمنين إلى قدرك اليوم، وانظر
إلى قدرك غداً، وأنت مأسور في حبائل الموت، وموقوف بين يدي الرب،
في مجمع من السلائك والرسل، وقد عنت الوجوه للحي القيوم.

يا أمير المؤمنين! وإن لم أبلغ في موعظتي ما بلغ أولو النهي، فلم ألك شفقة، ولا أدخرت عنك نصيحة، ولا قصرت في موعظتك، فأنزل كتابي إليك منزله، وتفرغ لسماعه فراغ من يرجو الانتفاع به، ولتتهن عندك مرارة الدواء؛ لما تزجو من عاقبة الشفاء، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته.

وكتب إليه: أما بعد: يا أمير المؤمنين! خف الله ما خوفاً، يكفك خوفك من الناس، وخذ مما في يدك لما بين يديك تسعد، فكان قد، وعند الموت يأتيك اليقين.

وكتب إليه عمر بن عبد العزيز: اكتب إلي أبا سعيد بصفة الإمام العادل، وأين هو؟ وأنى للأمة به؟
وكتب الحسن إليه: أما بعد:

يا أمير المؤمنين! أرتعك الله في رياض نعمته، ونزهك في حدائق صنعته.

فاعلم أن الله - سبحانه وتعالى - جعل الإمام العادل قواماً لكل مائل، وقضداً لكل جائر، وصالحاً لكل فاسد، وقوة لكل ضعيف، ونصفة لكل مظلوم، ومفرجاً لكل ملهوف.

والإمام العادل كالراعي الشفيق، والحازم الرقيق، الذي يرتاد لغنمه أطيب المراعي، ويدودها عن مراتع الهلكة، ويحميها من السباع، ويكفيها أذى الحر والقر.

والإمام العادل كالأب الحاني على ولده، يسعى لهم صغاراً، ويعلمهم كباراً، ويكسبهم في حياته، ويدخر لهم بعد وفاته.
وكالأم الشفيقة، البرة الرقيقة، حملت ولدها كرهاً، ووضعت كرهاً،

تَسْهَدُ إِذَا سَهَدَ، وَتَسْتَلِئُ إِذَا سَكَنَ، تُرْضِعُهُ تَارَةً، وَتَقْطَعُهُ أُخْرَى، تَفْرَحُ
بِعَافِيَّتِهِ، وَتَهْتَمُ بِشِكَايَتِهِ.

وَالْإِمَامُ الْعَادِلُ كَوْصِيِّ الْيَتَامَى، وَخَازِنِ الْمَسَاكِينِ؛ يُرَبِّي صَغِيرَهُمْ،
وَيَمُونُ كَبِيرَهُمْ.

وَالْإِمَامُ الْعَادِلُ كَالْقَلْبِ بَيْنَ الْجَوَارِحِ، تَصْلُحُ بِصَلَاحِهِ الْجُمَّلَةُ، وَتَفْسُدُ
بِفْسَادِهِ.

وَالْإِمَامُ الْعَادِلُ هُوَ الْقَائِمُ بَيْنَ اللَّهِ وَبَيْنَ عِبَادِهِ، يَسْمَعُ كَلَامَ اللَّهِ
فَيَسْمِعُهُمْ، وَيُبْصِرُ آثَارَ نِعْمَةِ رَبِّهِمْ فَيُبْصِرُهُمْ، وَيُنْقَادُ إِلَى أَوْامِرِ اللَّهِ تَعَالَى
وَيَقْوِدُهُمْ.

وَأَرْجُوا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ تَكُونَ هُوَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ.

وَلَوْلَا أَنَّ اللَّهَ افْتَرَضَ نَصِيحَتَكَ، لَكُنْتُ؛ لِمَا مَنَحَكَ اللَّهُ مِنْ هِدَايَةٍ،
وَرَزَقَكَ مِنْ تَوْفِيقٍ وَتَسْدِيدٍ، فِي غِنَى عَنْ مَوْعِظَتِكَ، وَلَكِنَّ اللَّهَ - جَلَّ ثَنَاؤُهُ -
أَخَذَ مِيثَاقَهُ عَلَى الْعُلَمَاءِ لِيُبَيِّنَنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا يَكْتُمُونَهُ.

* * *

ومن هذا الفصل

ما رُوِيَ عن الخروج على الأمراء

قال حُمَيْدُ خَادِمِ الْحَسَنِ: كُنْتُ عِنْدَ الْحَسَنِ يَوْمًا، فَجَاءَهُ رَجُلٌ، وَخَلَا بِهِ، وَشَاوَرَهُ فِي الْخُرُوجِ مَعَ ابْنِ الْأَشْعَثِ عَلَى الْحَجَّاجِ، فَقَالَ: اتَّقِ اللَّهَ يَا بْنَ أَخِي، وَلَا تَفْعَلْ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكَ، وَغَيْرُ جَائِزٍ لَكَ، فَقُلْتُ: أَصْلَحَكَ اللَّهُ! لَقَدْ كُنْتُ أَعْرِفُكَ سَيِّءَ الْقَوْلِ فِي الْحَجَّاجِ، غَيْرَ رَاضٍ عَنِ سِيرَتِهِ، فَقَالَ لِي: يَا أَبَا الْحَسَنِ! وَايْمُ اللَّهِ! إِنِّي الْيَوْمَ لِأَسْوَأَ فِيهِ رَأْيًا، وَأَكْثَرَ عَلَيْهِ عَثْبًا، وَأَشَدُّ ذَمًّا، وَلَكِنْ لَتَعْلَمَنَّ - عَافَاكَ اللَّهُ - أَنَّ جَوْرَ الْمُلُوكِ نِقْمَةٌ مِنْ نِقْمِ اللَّهِ تَعَالَى، وَنِقْمُ اللَّهِ لَا تُلَاقَى بِالسَّيْفِ، وَإِنَّمَا تُتَّقَى، وَتُسْتَدْفَعُ بِالْإِقْلَاعِ وَالتَّوْبَةِ وَالْإِنَابَةِ وَالْإِقْلَاعِ عَنِ الذُّنُوبِ. إِنَّ نِقْمَ اللَّهِ مَتَى لُقِيَتْ بِالسَّيْفِ، كَانَتْ هِيَ أَقْطَعُ، وَلَقَدْ حَدَّثَنِي مَالِكُ بْنُ دِينَارٍ أَنَّ الْحَجَّاجَ كَانَ يَقُولُ: اْعْلَمُوا أَنْكُمْ كُلَّمَا أَحَدْتُمْ ذَنْبًا، أَحَدَّثَ اللَّهُ مِنْ سُلْطَانِكُمْ عُقُوبَةً.

ولقد حَدَّثْتُ أَنَّ قَائِلًا قَالَ لِلْحَجَّاجِ: إِنَّكَ تَفْعَلُ بِأُمَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ كَيْتٌ وَكَيْتٌ، فَقَالَ: أَجَلٌ، إِنَّمَا أَنَا نِقْمَةٌ عَلَى أَهْلِ الْعِرَاقِ؛ لَمَّا أَحَدَثُوا فِي دِينِهِمْ مَا أَحَدَثُوا، وَتَرَكَوا مِنْ شَرَائِعِ نَبِيِّهِمْ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - مَا تَرَكَوا.

وقيل: سَمِعَ الْحَسَنُ رَجُلًا يَدْعُو عَلَى الْحَجَّاجِ، فَقَالَ: لَا تَتَّعَلْ - رَحِمَكَ اللَّهُ - إِنَّكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَتَيْتُمْ، إِنَّمَا نَخَافُ أَنْ يُعْزَلَ الْحَجَّاجُ، أَوْ مَاتَ، أَنْ يَلِيَكُمُ الْقِرْدَةُ وَالْخَنَازِيرُ؛ فَقَدْ رُوِيَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «عُمَّالُكُمْ

كَأَعْمَالِكُمْ، وَكَمَا تَكُونُونَ يُؤْتَىٰ عَمَلِكُمْ» (١).

ولقد بلغني: أن رجلاً كتب إلى بعض الصالحين يشكو إليه جورَ
العَمَالِ، فكتب إليه: يا أخي! وصلني كتابك تذكُّرُ ما أنتم فيه من جورِ
العَمَالِ، وأنه ليس ينبغي لِمَنْ عَمِلَ بالمعصية أن يُنكَرَ العقوبة، وما أظنُّ
الذي أنتم فيه إلا من شُرْمِ الذنوب، والسلام.

ولقد بلغني أن أبا بكرٍ - رضي الله عنه - خطبَ على منبرِ
رسولِ الله ﷺ، فقال: أيُّها الناس! سمعت رسولَ الله ﷺ يقول: «إِنَّ اللَّهَ -
جَلَّ ثَنَاؤُهُ - يقول: أنا اللهُ لا إلهَ إلا أنا، مالِكُ المُلوكِ، قُلُوبُ المُلوكِ
بِيَدَيَّ، فَمَنْ أطاعني منكم، جعلتُهم عليه رحمةً، ومَنْ عصاني، جعلتُهم
عليه نِقْمَةً، فلا تشغلوا قلوبكم بسبِّ المُلوكِ، ولكن توبوا إليَّ أعطفنهم
عليكم».

وقال الأشعثُ: كنتُ عندَ الحسنِ حتى دخلَ عليه رجلٌ مُصَفَّرٌ كأنه من
أهلِ البَحْرَيْنِ، فقال: يا أبا سعيد! إني أريدُ أن أسألكَ عن الوُلاةِ، فقالَ
الحسنُ: سَلْ عَمَّا بَدَا لَكَ، فقالَ: ما تقولُ في أنمَّتينا هؤلاءِ؟ قالَ: فسكتَ
مَلِيًّا ثم قالَ: وما عسى أن أقولَ فيهم، وهم يَلُونُ من أُمُورِنَا خَمْسًا:
الجمعة، والجماعة، والفيء، والثُّغُور، والحدودُ؟ والله ما يستقيمُ الدينُ

(١) روى الجزء الأخير منه الديلمي من طريق يحيى بن هاشم مرفوعاً. والبيهقي في
«الشعب» من طريق يحيى بن هاشم مرسلاً، ويحيى أنبأهم بالوضع. وقد رواه القضاعي
في «مسنده» من طريق أحمد بن عثمان الكرماني. وأشار ابن حجر في «تخريج
الكشاف» (٢٥/٤) إلى أن في سنده مجاهيل. وجاء بلفظ: «كما تكونون، كذلك
يؤمر عليكم» انظر: «مشكاة المصابيح» برقم (٣٧١٧). «السلسلة الضعيفة» للألباني
رقم (٢٣٠).

إِلَّا بِهِمْ، وَإِنْ جَارُوا، وَإِنْ ظَلَمُوا، وَاللَّهُ لَمَّا يُضْلِحَ اللَّهُ بِهِمْ أَكْثَرَ مِمَّا يُفْسِدُونَ، وَاللَّهُ إِنْ طَاعَتَهُمْ لَغِبَطَةٌ، وَإِنْ فُرْقَتَهُمْ لَكُفْرٌ.

قال: فقال الرجلُ: يا أبا سعيد! والله إني لذو مالٍ كثير، وما يسُرُّني أن يكونَ لي أمثاله، وأني لم أسمع منك الذي سمعتُ، فجزاك اللهُ عن الدينِ وأهله خيراً.

وسُئِلَ الحَسَنُ عَنِ الحَجَّاجِ، فقال: يتلو كتابَ اللهِ، وَيَعِظُ وَعَظَّ الأبرارِ، وَيُطْعِمُ الطَّعَامَ، وَيُؤْتِرُ الصَّدَقَ، وَيَبِطِشُ بَطِشَ الجَبَّارِينَ.

قالوا: فما ترى في القيامِ عليه؟ فقال: اتَّقوا اللهَ، وتُوبوا إليه يَكْفِكُمْ جَوْرَهُ، واعلموا أنَّ عندَ اللهِ حجاجينَ كثيراً.

وكان يقولُ: هؤلاء - يعني الملوكة - وَإِنْ رَقَصَتْ بِهِمُ الهَمَالِيجُ^(١)، وَوَطِئَ النَّاسُ أَعْقَابَهُمْ، فَإِنَّ ذُلَّ المَعْصِيَةِ فِي قُلُوبِهِمْ، إِلَّا أَنَّ الحَقَّ أَلْزَمَنَا طَاعَتَهُمْ، وَمَنَعَنَا مِنَ الخُرُوجِ عَلَيْهِمْ، وَأَمَرْنَا أَنْ نَسْتَدْفِعَ بالتَّوْبَةِ والدُّعَاءِ مَضَرَّتَهُمْ، فَمَنْ أَرَادَ بِهِ خَيْراً، كَزِمَ ذَلِكَ، وَعَمِلَ بِهِ، وَلَمْ يُخَالَفْهُ.

* * *

(١) فارسي معرب: نوع من الدواب.

الفصل الثامن

فيما رُوِيَ له من المواعظِ والحِكَمِ في سائر الأشياءِ

كان - رحمه الله - يقولُ: الواعِظُ مَنْ وَعَظَ النَّاسَ بِعَمَلِهِ، لا بقوله .
وكان ذلك شأنه إذا أراد أن يأمرَ بشيءٍ، بدأ بنفسه ففعلهُ، وإذا أراد أن
ينهى عن شيءٍ، انتهى عنه .

وكان يقولُ: أتصل بي أن بعضَ الصالحينَ جعلَ على نفسه ألا يراه اللهُ
ضاحِكاً حتى يَعْلَمَ أيُّ الدَّارينِ دارُهُ: الجنَّةُ، أم النارُ؟ فيقولُ الحسنُ -
رحمة الله - لقد عزمَ - رحمه الله - فوفى بعزمه، وما رُئي ضاحِكاً حتى لَحِقَ
باللهِ - عزَّ وجلَّ - .

وقيل: مرَّ الحسنُ برجلٍ يضحكُ، فقال: يا ابنَ أخي! جُزْتَ الصراطَ؟
فقال: لا، فقال: فهل علمتَ إلى الجنَّةِ تصيرُ أم إلى النارِ؟ فقال: لا،
فقال: ففيمَ الضَّحِكُ - عافاك اللهُ - والأمرُ هولٌ؟! قيل: فما رُئي الرجلُ
ضاحِكاً حتى ماتَ .

ورأى الحسنُ قوماً يتضاحكونَ، ويتغامزونَ، ويتدافعون بعدَ انصرافِهِمُ
يومَ النِّطْرِ من صلاةِ الفجرِ، فقال: يا قوم! إنَّ اللهَ سبحانه جعلَ شهرَ
رمضانَ مضمّاراً لعبادهِ، يَسْتَبِقُونَ الطاعةَ إلى رحمةِ اللهِ، وَيَجْتَهِدُونَ في

الأعمال ليفوزوا بدخولِ جَنَّتِهِ، فسبقَ أقوامٌ ففازوا، وقصُرَ آخرون فخابوا،
والعَجَبُ كُلُّ العَجَبِ للضَّاحِكِ في اليومِ الذي رَبِحَ فيه المُحْسِنون، وخَسِرَ
المُبْطِلون.

أما - والله - لو كُشِفَ الغِطاءُ، لَشُغِلَ مُحْسِنٌ بإحسانِهِ، ومُسيءٌ
بإساءَتِهِ، عن تَجْدِيدِ ثوبٍ، وتَرْجِيلِ شَعْرٍ.

فإن كنتم - وفقكم اللهُ - قد تَقَرَّرَ عندكم أن سعيكم قد قُبِلَ، وعمَلُكم
الصالح قد رُفِعَ، فما هذا فِعْلَ الشاكِرِينَ! وإن كنتم لم تَتَيَقَّنُوا ذلكَ، فما
هذا فِعْلَ الخائفِينَ!

وكان يقولُ: ابنُ آدمَ! أَقَلِّلِ الضَّحِكَ؛ فإن كثرةَ الضحكِ تُميتُ القلبَ،
وتُزِيلُ البهجةَ، وتُسْقِطُ المروءةَ، وتُزْري بذِي الحالِ.

وكان يقولُ: رُويَ أنَّ اللهُ - سبحانه وتعالى - أوحى إلى عيسى - عليه
السلامُ - : يا عيسى! إكْحَلْ عَيْنَيْكَ بالبُكاءِ إذا رأيتَ الغافلينَ يَضْحَكُونَ.

وعاد الحسنُ عليلاً، فوافقَه وهو في الموتِ، ورأى تَقَلُّبَهُ وشِدَّةَ ما نزل
به، فلما رَجَعَ إلى داره، قدَّموا له طعاماً، فقال: عليكم بطعامِكم
وشرابِكم؛ فإني رأيتُ مَصْرَعاً لا بدَّ لي منه، ولا أزالُ أعملُ له حتى ألقاهُ،
وتأخَّرَ عن الطعامِ أياماً، حتى لُطِفَ به وأكَل.

وكان يقولُ: إن اللهُ سبحانه لم يجعلْ لأعمالِكم أجلاً دونَ الموتِ،
فعلِكم بالمدِوامَةِ؛ فإنه - جلَّ ثناؤه - يقولُ: ﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ
الْيَقِينُ﴾ (١).

وكان يقولُ: رأيتُ سَبْعِينَ بَدْرِيّاً، لو رأيتُموهم لقلُّتم: مجانينٌ، ولو

(١) سورة الحجر: ٩٩.

رَأَوْا خِيَارَكُمْ لِقَالُوا: مَا هَذَا مِنْ خَلْقٍ، وَلَوْ رَأَوْا شِرَارَكُمْ لِقَالُوا: هَؤُلَاءِ لَا يُؤْمِنُونَ بِيَوْمِ الْحِسَابِ.

وكان يقول: رَحِمَ اللهُ امرأً نَظَرَ فَفَكَّرَ، وَفَكَّرَ فَاعْتَبَرَ، وَاعْتَبَرَ فَأَبْصَرَ، وَأَبْصَرَ فَصَبَرَ.

لقد أبصر أقوامٌ ثم لم يصبروا، فذهب الجزعُ بقلوبهم، فلم يُدركوا ما طلبوا، ولا رجَعوا إلى ما فارقوا، فحسروا الدنيا والآخرة، ذلك هو الخسرانُ المبينُ.

وكان يقول: أَيُّهَا النَّاسُ! إِنِّي أَعْظُكُمْ وَلَسْتُ بِخَيْرِكُمْ وَلَا أَصْلِحُكُمْ، وَإِنِّي لَكثيرُ الإسرافِ على نفسي، غيرُ مُحْكِمٍ لها، ولا حَامِلِهَا على الواجبِ في طاعةِ رَبِّهَا، ولو كان المؤمنُ لا يعِظُ أخاهُ إلا بعدَ إحكامِ أمرِ نفسه، لَعُدِمَ الواعِظونَ، وَقَلَّ المَذْكُرونَ، وَلَمَّا وُجِدَ مَنْ يَدْعُو إلى اللهِ - عزَّ وجلَّ -، وَيُرَغَّبُ في طاعتهِ، وَيُنهى عن مَعْصِيَتِهِ، وَلَكِنْ في اجتماعِ أهلِ البصائرِ، ومذاكرةِ المؤمنينَ بعضهم بعضاً حياةً لقلوبِ المُتَّقِينَ، وادِّكَّارٍ من الغفلةِ، وأمانٍ من النسيانِ، فالزموا - عافاكم اللهُ - مجالِسَ الذِّكْرِ، فَرُبَّ كَلِمَةٍ مَسْمُوعَةٍ، وَمُخْتَفَرٍ نَافِعٍ، ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ، وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾^(١).

أَيُّهَا النَّاسُ! أَصْبِحْتُمْ - وَاللَّهِ - فِي أَجَلٍ مَنقُوصٍ، وَعَمَلٍ مُحْصَى مَخْرُوسٍ، المَوتُ فَوْقَ رُؤُوسِكُمْ، وَالنَّارُ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ.

أَيُّهَا النَّاسُ! إِنَّمَا لِأَحَدِكُمْ نَفْسٌ وَاحِدَةٌ، إِنْ نَجَتْ مِنْ عَذَابِ اللهِ، لَمْ يَضُرَّهَا مَنْ هَلَكَ، وَإِنْ هَلَكَتْ، لَمْ يَنْفَعْهَا مَنْ نَجَا، فَاحذروا - عافاكم اللهُ -

(١) سورة آل عمران: ١٠٢.

التسوية؛ فإنه أهلك من قبلكم، وإنكم لا تدرُونَ متى تسرون؟ ولا إلى أي شيء تصرون؟ فرحم الله عبداً عملاً ليوم معاده، قبل نفاذ زاده.

وقال: أيها الناس! إن الله - عز وجل - بسط لكم صحيفة، وكل بكل رجل منكم ملكين كريمين، أحدهما عن اليمين، والآخر عن اليسار، وهو تعالى رقيب عليهما، فإن شاء قلل، وإن شاء كثر، إنما يُملَى كتاباً ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظِلُّمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾^(١)، ولقد روي أنه لما نزل على رسول الله ﷺ: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سِوَاهُ يُجْزِئِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾^(٢)، قال أبو بكر الصديق - رضي الله عنه -: نزلت - والله - قاصمة الظهر^(٣). فإذا قال ذلك أبو بكر، وقد شهد له بالجنة، فكيف يجب أن يكون قول من سواه؟ فاعتبروا - معشر المؤمنين - وكونوا على حذر؛ لعلكم تأمنون من عذاب يوم عظيم.

وكان يقول: ابن آدم! إياك والاعتزاز؛ فإنك لم يأتك من الله أمان؛ فإن الهول الأعظم والأمر الأكبر أمامك، وإنك لا بد أن تتوسد في قبرك ما قدمت؛ إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، فاغتنم المبادرة في المهل، وإياك والتسوية بالعمل، فإنك مسؤول، فأعد للمسألة جواباً.

(١) سورة الكهف: ٤٩.

(٢) سورة النساء: ١٢٣.

(٣) رواه ابن جرير في «تفسيره» عند قوله: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سِوَاهُ يُجْزِئِهِ﴾ [النساء: ١٢٣] قال: حدثنا القاسم، قال: حدثنا الحسين، قال: حدثني حجاج عن ابن جرير، قال: أخبرني عطاء بن أبي رباح، قال: لما نزلت، قال أبو بكر: جاءت قاصمة الظهر، فقال رسول الله - ﷺ -: «إنما هي المصيبات في الدنيا». وقد ذكره ابن كثير عن ابن جرير (٥٥٨/١).

وكان يقول: ابن آدم! إن المؤمن لا يُصبح إلا خائفاً، وإن كان مُحسناً، ولا يضلح أن يكون إلا كذلك؛ لأنه بين مخافتين: ذنب مَضَى لا يدري ما الله صانع فيه، وأجل قد بقي لا يدري ما الله مُبتلي به فيه، فَرَحِمَ اللهُ عبداً فَكَرَّ واعتبر، واستبصر فأبصر، ونهى النفس عن الهوى.

ابن آدم! إن الله - جَلَّتْ قدرته - أمرَ بالطاعة، وأعانَ عليها، ولم يجعل عُذراً في تركها، ونهى عن المعصية، ونفى عنها، ولم يُوسِّع لأحد في ركوبها، ولقد رُوِيَ أَنَّ اللهَ - سبحانه وتعالى - يقولُ يومَ القيامةِ لآدمَ: يا آدمُ! أنتَ اليومَ عدلٌ بيني وبين ذُرِّيَّتِكَ، فَمَنْ رَجَحَ خَيْرُهُ على شَرِّهِ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ، فله الجنةُ، حتى تعلمَ أني لا أُعَذِّبُ إلا ظالماً.

وكان يقول: ما في جهنم وادٍ، ولا سلسلة، ولا قيد، إلا واسمُ صاحبه مكتوبٌ عليه ما حُكِمَ في القضاء، فكيف - أيها الناسُ - إن اجتمعَ ذلك كله على عبدٍ؟! اتقوا اللهَ أيها الناسُ، واحذروا مَقْتَهُ؛ فَلَمَقَّتْ اللهُ أكبرُ لو كانوا يعلمون.

وقيل: خرجَ الحسنُ يوماً على أصحابه وهم مجتمعون، فقال: والله لو أن رجلاً منكم أدركَ مَنْ أدركتُ من القرون الأولى، ورأى مَنْ رأيتُ من السلفِ الصالح، لأصبحَ مَهْموماً، وأمسى مَغْموماً، وعلمَ أن المجدَّ منكم كاللأعيب، والمجتهدَ كالتارك، ولو كنتُ راضياً عن نفسي، لَوَعَّظْتُكُمْ، ولكنَّ اللهَ يعلمُ أنني غيرُ راضٍ عنها، ولذلك أَبغضْتُها وأبغضْتُكُمْ.

أيها الناسُ! إنَّ للهَ عبداً هم كَمَنْ رأى أهلَ الجنةِ في الجنةِ مُتَنَعِّمينَ، وأهلَ النارِ في النارِ مُعَذِّبينَ، فهمُ يعملونَ لِمَا رَأَوْا من النعيمِ، وينتهونَ عما خالفوا من العذابِ الأليمِ.

أَيُّهَا النَّاسُ! إِنَّ لِلَّهِ عِبَادًا قُلُوبُهُمْ مَخْزُونَةٌ، وَشُرُورُهُمْ مَأْمُونَةٌ، وَأَنْفُسُهُمْ عَافِيَةٌ، وَجَوَانِحُهُمْ خَفِيَّةٌ، صَبَرُوا الْأَيَّامَ الْقَلِيلَةَ؛ لَمَّا رَجَوْا فِي الدَّهْرِ الْأَطْوَالَ، أَمَّا اللَّيْلُ، فَقَائِمُونَ عَلَى أَقْدَامِهِمْ، يَتَضَرَّعُونَ إِلَى رَبِّهِمْ، وَيَسْعَوْنَ فِي فَكَاكِ رِقَابِهِمْ، تَجْرِي مِنَ الْخَشْيَةِ دُمُوعُهُمْ، وَتَخْفُقُ مِنَ الْخَوْفِ قُلُوبُهُمْ، وَأَمَّا النَّهَارُ، فَحُكَمَاءُ عُلَمَاءُ أَتْقِيَاءُ أَخْفِيَاءُ، يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ، تَخَالُهُمْ مِنَ الْخَشْيَةِ مَرْضَى، وَمَا بِهِمْ مَرَضٌ، وَلَكِنَّهُمْ خُوِلَطُوا بِذِكْرِ النَّارِ وَأَهْوَالِهَا، لَهُمْ - وَاللَّهِ - كَانُوا فِيمَا أُحِلَّ لَهُمْ أَزْهَدُ مِنْكُمْ فِيمَا حُرِّمَ عَلَيْكُمْ، وَكَانُوا أَبْصَرَ بِقُلُوبِهِمْ لِدِينِهِمْ مِنْكُمْ لِدُنْيَاكُمْ بِأَبْصَارِكُمْ، وَلَهُمْ كَانُوا بِحَسَنَاتِهِمْ أَنْ تُرَدَّ عَلَيْهِمْ أَخْوَفَ مِنْكُمْ أَنْ تُعَذَّبُوا عَلَى سَيِّئَاتِكُمْ، ﴿أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾^(١).

وكان يقول: ابن آدم! لا يغررتك من حولك من هذه السباع العادية: ابنك، وحليلتك وخادمتك وكلالتك: أما ابنك، فمثل الأسد ينارحك ما بين يديك، وأما حليلتك فمثل الكلبة في الهرير والبصبصة؛ وأما خادمتك فمثل الثعلب في الحيلة والسرقة؛ وأما كلالتك، فوالله لديرهم يصل إليهم بعد موتك أحب إليهم من أن لو كنت أعتقت رقبة، فإياك أن تُوقرَ ظهرَكَ بصلاجهم؛ فإنما لك منهم أيامك القلائل، وإذا وضعوك في قبرك، انصرفوا عنك، فصرخوا بعدك الثياب، وضرَبوا الدُّفوفَ، وضحكوا القهقهة، وأنت تُحاسبُ بما في أيديهم، فَقَدَّمْ لِنَفْسِكَ ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْتَضِرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيَحْذِرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾^(٢).

(١) سورة المجادلة: ٢١.

(٢) سورة آل عمران: ٣٠.

أَيُّهَا النَّاسُ! إِنَّ أَحَدَكُمْ يُحَذِّرُهُ صَاحِبُهُ أَمْرًا، فَيَتَّقِيهِ وَيَحْذَرُهُ، فَكَيْفَ مَنْ
حَذَّرَهُ رَبُّهُ نَفْسَهُ، وَخَوْفَهُ عُقُوبَتَهُ؟ يَقُولُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ
اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْأَقْوَامُ الْخَاسِرُونَ﴾^(١).

وكان يقول: ألا تعجبون من رجل يلهو ويغفل، ويهزأ ويلعب، وهو
يمشي بين الجنة والنار، لا يدري إلى أيِّهما يصير؟
رُوي أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى كَرِهَ لَكُمْ الْعَبَثَ فِي الصَّلَاةِ،
وَالرَّفَثَ فِي الصِّيَامِ، وَالضَّحِكَ فِي الْمَقَابِرِ».

وكان يقول: سبحان من أذاق قلوب العارفين من حلاوة الانقطاع إليه،
ولذة الخدمة له ما علق هممهم بذكره، وشغل قلوبهم عن غيره، فلا شيء
ألذ عندهم من مناجاته، ولا أقر لأعينهم من خدمته، ولا أخف على
ألسنتهم من ذكره، سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

وكان يقول: رُوي أن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - كان يُوري
النار، ويُدني منها يده ويقول: انظر يا ابن الخطاب كيف صبرك على النار؟
وكيف لك قدرة على سخط الجبار؟ ثم يستعيد بالله من النار، ومن عمل
أهل النار.

ثم يقول الحسن: إذا كان هذا خوف عمر - رضي الله عنه -، وهو ممن
شهد له بالجنة، فكيف أيُّها الناس تلبسون^(٢)؟

وكان يقول: ابن آدم! إنما أنت ضيف، والضيف مُرتحل، ومُستعار،
والعارية لله، لله دَرُّ أقوام نظروا بعين الحقيقة، وقدموا إلى دار المُستقر.

(١) سورة الأعراف: ٩٩.

(٢) وفي المصطلح (تلبسون).

وكان يقول: ما مرَّ يومٌ على ابنِ آدمَ إلا قال له: ابنَ آدمَ: إني يومٌ جديدٌ، وعلى ما تَعَمَلُ فِيَّ شهيدٌ، إذا ذهبتُ عنكَ لم أرجعُ إليك، فقدم ما شئتَ تجذُّهُ بينَ يديكَ، وأخر ما شئتَ فلن يعودَ أبداً إليك.

وكان يقول: إنما يكرمُكَ مَنْ يكرمُكَ مادامَ روحُكَ في جسدِكَ، لو قد انتزعَ منك، لنبذوك وراءَ ظهورِهِم، ولو تُرِكتَ بينهم، لفرَّوا منك فرارِهِم من الأسدِ.

وكان يقول: اعتبروا الناسَ بأعمالِهِم، ودعوا أقوالِهِم؛ فإنَّ اللهَ - عزَّ وجلَّ - لم يدعُ قولاً إلا جعلَ عليه دليلاً من عملٍ يُصدِّقُه أو يُكذِّبُه، فإذا سمعتَ قولاً حسناً، فرؤيماً بصاحبه، وإن وافقَ منه القولُ العملَ فنيحاً، ونعمتَ عين، وإن خالفَ القولُ العملَ، فإياك أن يشبَّهَ عليك شيءٌ من أمرِهِ؛ فإنها خُدعٌ للسالكين.

وكان يقول: ابنَ آدمَ! إن لك قولاً وعملاً، فعملُك أحقُّ بك من قولك، وإن لك سريرةً وعلانيةً، فسريرتُك أولى بك من علانيتك، وإن لك عاجلاً وعاقبةً، وعاقبتُك أحقُّ بك من عاجلتك.

ابن آدمَ! إن اللهَ - سبحانه وتعالى - يقول: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾^(١)، فاعملوا صالحاً - وفقكم اللهُ - تجدوا عاقبته.

وقيل: بينما الحسنُ يوماً في المسجدِ تنفَّسَ الصُّعداءُ، وبكى بكاءً شديداً، حتى ارتعدت رُكبته، وخفق قلبه، ثم قال: لو أنَّ بالقلوبِ حياةً، لو أنَّ بها صلاحاً، لبكت من ليلةٍ صبيحتها القيامةُ، أي يوم - عباد الله - ما سمعَ الخلائقُ بيومٍ أكثرَ منه عورةً باديةً، ولا عيناً باكيةً؟! .

(١) سورة فاطر: ١٠.

وكان يقول: ما أفررت عين بمانها من خشية الله إلا حرم الله جسدها على النار، فإن فاضت على خدها لم يرهق ذلك الوجه قترًا ولا ذلَّةً، وليس من عملٍ إلا وله وزنٌ وثوابٌ، إلا الدمعة من خشية الله؛ فإنها تطفئ ما شاء الله من حرِّ النار، ولو أن رجلاً بكى من خشية الله في أُمَّة، لرجوت أن يرحم الله تعالى ببيكائه تلك الأمة بأسرها.

وكان يقول: إنَّ الله - عزَّ وجلَّ - لا يفرض على العبد ثمنًا على العلم الذي تعلَّمه إلا الثمن الذي يأخذه المعلمُ به، فمن تعلَّم العلم بحقِّ الله، ولابتغاء ما عند الله، فقد ربح، ومن تعلَّمه لغير الله، انقطع، ولم يصل به إلى الله تعالى.

وكان يقول: مسكينُ ابنِ آدم! ما أضعفه! مكتومُ العليل، مكثومُ الأجل، تؤذيه البقَّة، وتقتله الشَّرْقَةُ، يرحل كلُّ يوم إلى الآخرة مرحلةً، ويقطع من الدنيا منزلةً، ورُبَّما طغى وتكبر، وظلم وتجبَّر.

وحضرَ الحسنُ جنازةً ثم قال: أيُّها الناس! اعملوا لمثل هذا اليوم، ﴿فَسِيرِي اللَّهُ عَمَلِكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَرَدُونَ﴾ إِلَىٰ عِلِيِّ النَّبِيِّ وَالشَّهَدَةِ فَيُنشِرُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿(١)﴾.

وكان يقول: أيُّها الناس! اغتَنِمُوا الصُّحَّةَ وَالْفَرَاغَ، وبادِرُوا بالأعمالِ مِنْ قَبْلِ يَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ.

وكان يقول: ابنِ آدم! لا تخافَنَّ مِنْ ذِي مُلْكٍ؛ فإنه عبدٌ لِسَيِّدِكَ، ولا تَطْمَعَنَّ فِي ذِي مَالٍ؛ فإنَّما تأكلُ رِزْقَ مَوْلَاكَ، ولا تُخَالِلِ ذَا جُرْمٍ؛ فإنه عليك وبال، ولا تُحْقِرَنَّ فَقِيرًا؛ فإنه أخٌ شقيقٌ لك.

(١) سورة التوبة: ١٠٥.

وكان يقول: ابن آدم! لا تَحْقِرَنَّ مِنَ الطَّاعَةِ شَيْئاً، وَإِنْ قَلَّ فِي نَفْسِكَ، وَصَغُرَ عِنْدَكَ؛ فَإِنَّ اللَّهَ سَبْحَانَهُ يَقْبَلُ مِثْقَالَ الذَّرَّةِ، وَيُجَازِي عَلَى اللَّحْظَةِ، وَلَوْ رَأَيْتَ قَدْرَهُ عِنْدَ رَبِّكَ لَسَرَّكَ، وَلَا تَحْقِرَنَّ مِنَ الْمَعْصِيَةِ شَيْئاً، وَإِنْ قَلَّ فِي نَفْسِكَ، وَصَغُرَ عِنْدَكَ؛ فَإِنَّ رَبَّكَ شَدِيدُ الْعِقَابِ.

وحضر يوماً مجلساً جمع شيوخاً وشباباً، فقال: مَعَشَرَ الشُّيُوخِ! مَا يُصْنَعُ بِالزَّرْعِ إِذَا طَابَ؟ فَقَالُوا: يُحْصَدُ، ثُمَّ التَفَتَ فَقَالَ: مَعَشَرَ الشُّبَابِ! كَمْ مِنْ زَرْعٍ لَمْ يَبْلُغْ قَدْ أَدْرَكَتُهُ الْآفَةُ فَأَهْلَكَتُهُ، وَأَتَتْ عَلَيْهِ الْجَائِحَةُ فَأَتْلَفَتْهُ! ثُمَّ بَكَى وَتَلَا: ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (١).

وكان يقول: ابن آدم! إِنَّكَ تَمُوتُ وَحَدَاكَ، وَتُبْعَثُ وَحَدَاكَ، وَتُحَاسَبُ وَحَدَاكَ.

ابن آدم! لو أن الناس كلهم أطاعوا الله، وعصيت أنت، لم تنفعك طاعتهم، ولو عصوا الله، وأطعتك، لم تضرَّك معصيتهم.

ابن آدم! دِينُكَ دِينُكَ؛ فَإِنَّمَا هُوَ لَحْمُكَ وَدَمُّكَ، فَإِنْ سَلِمَ لَكَ دِينُكَ، سَلِمَ لَحْمُكَ وَدَمُّكَ، وَإِنْ تَكُنِ الْآخِرَى، فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنْهَا؛ فَإِنَّمَا هِيَ نَارٌ لَا تُطْفَأُ، وَجِسْمٌ لَا يَبْلَى، وَنَفْسٌ لَا تَمُوتُ.

وكان يقول: لا يزال العبدُ بخيرٍ ما كان له وإعِظُ مِنْ نَفْسِهِ، وَكَانَتْ الْفِكْرَةُ مِنْ عَمَلِهِ، وَالذِّكْرُ مِنْ شَأْنِهِ، وَالْمِحَاسَبَةُ مِنْ هِمَّتِهِ، وَلَا يَزَالُ يَشْرُ مَا اسْتَعْمَلَ التَّسْوِيفَ، وَاتَّبَعَ الْهَوَى، وَأَكْثَرَ الْغَفْلَةَ، وَرَجَحَ فِي الْأَمَانِيِّ.

(١) سورة إبراهيم: ٢٥.

وروي أن الحسن - رضي الله عنه - اتصل به أن مكحولاً^(١) توفي،
فحزن عليه، وتراحم له، ثم اتصل به بطلان ذلك، فكتب إليه:

أما بعد: أبا عبد الله! خاز الله لنا ولك في المَحْيَا والمَمَاتِ، وقضى لنا
ولك بخير الدنيا والآخرة، ويسر لنا ولك حُسْنَ المَالِ والمُنْقَلَبِ؛ فإنه أتانا
عنك خبراً راعنا، ثم أتى بعده ما أكذبه، فلعمرو الله لقد سررنا، وإن كان
السرور بما سررنا به غير طائل، وسبيل الانقطاع داعياً عمّا قليل إلى الخبر
الأول، فهل أنت - عافاك الله - ووفقنا وإياك لصالح العمل - كرجل ذاق
الموت، وعاین ما بعده، وسأله الرجعة فأجيب إليها، وأعطى ما سأل بعد
أن عاین ما فاتته، فتأهب في فضل جهازه إلى دار قراره، لا يرى أن له من
ماله إلا ما قدّم أمامه، ومن عمله إلا ما كتبت له ثوابه، والسلام.

وكان يقول: روي أن عيسى - عليه السلام - قال للحواريين:
اعملوا لله، ولا تعملوا لبطونكم؛ فإن الطير لا تزرع ولا تحصد، تغدو
ولا رزق لها، الله يرزقها.

فإن قلتم: إن بطونكم أكبر من بطونها، فهذه الوحوش من الدواب
لا تزرع ولا تحصد، لا رزق لها، الله يرزقها.

وكان يقول: من استغفر الله - عز وجل - بعد صلاة الصبح ثلاث
مرات؛ غفرت له ذنوبه، وإن كان فاراً من الزحف^(٢).

(١) مكحول الأزدئي العكي البصري، أبو عبد الله، من فصحاء أهل البصرة.

(٢) لقد أشار الأستاذ الألباني إلى ضعف هذا الحديث الذي جاء بلفظ: «من استغفر الله
دبر كل صلاة ثلاث مرات فقال: استغفر الله الذي لا له إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه
غفرت ذنوبه، وإن كان قد فر من يوم الزحف». انظر: «ضعيف الجامع» برقم
(٥٤١٠).

وكان يقول: رُوِيَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «الَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلَّا رَحِيمٌ»، قالوا: كُلُّنَا رَحِيمٌ يَا رَسُولَ اللَّهِ! قَالَ: «الْيَسَّ رَحْمَةً أَحَدِكُمْ نَفْسَهُ وَوَلَدَهُ وَخَاصَّتَهُ، وَلَكِنِ الْعَامَّةُ» وَرَفَعَ بِهَا صَوْتَهُ.

وكان يقول: رُوِيَ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: أَلَا أُنبئُكُمْ بِخَيْرِ النَّاسِ؟ قالوا: بلى يا أمير المؤمنين! قال: مَنْ طَالَ عُمُرُهُ، وَحَسَنَ عَمَلُهُ، وَرُجِيَ خَيْرُهُ، وَلَمْ يُخَفْ شَرُّهُ، ثُمَّ قَالَ: أَلَا أُنبئُكُمْ بِشَرِّ النَّاسِ؟ قالوا: بلى. قَالَ: مَنْ طَالَ عُمُرُهُ، وَسَاءَ عَمَلُهُ، وَلَمْ يُرَجَّ خَيْرُهُ، وَلَمْ يُؤْمِنْ شَرُّهُ.

وكان يقول: إِنْ الرَّجُلَ لَيَسْمَعُ الْبَابَ مِنَ الْعِلْمِ، فَيَعْمَلُ بِهِ، فَيَكُونُ خَيْرًا لَهُ مِنْ أَنْ لَوْ كَانَتْ لَهُ الدُّنْيَا فَوَضَعَهَا فِي الْآخِرَةِ.

وذكر أنه رأى قوماً في وقتِ القائلة لا يقبلون، فقال: ما لهؤلاء لا يقبلون؟ إني لأحسب ليلهم ليل سوء.

وكان يقول: حادِثُوا هَذِهِ الْقُلُوبَ؛ فَإِنَّهَا سَرِيعَةُ الدُّثُورِ، وَأَقْرَعُوا هَذِهِ الْأَنْفُسَ؛ فَإِنَّهَا طَامِحَةٌ، فَإِنَّكُمْ إِلَّا تَمْنَعُوهَا، تَنْزِعَ بِكُمْ إِلَى شَرِّ غَايَةٍ.

وقيل له: يا أبا سعيد! ما تقول في الشفاعة؟ أحق هي؟ فقال: نعم، قيل له: فإنَّ الله - سبحانه وتعالى - يقول: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُخْرِجُوكَ مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِمُخْرِجِينَ مِنْهَا﴾^(١)، قال: هو كما قال سبحانه وتعالى، قيل له: فبِمَ دَخَلَ مَنْ دَخَلَ فِيهَا، وَبِمَ خَرَجَ؟ فقال: كانوا أصابوا ذنوباً من الدنيا أخذهم الله بها، ثم أخرجهم بما علم في قلوبهم من الإيمان والتصديق.

وكان يقول: أيها الناس! إحدروا قطيعة الأرحام؛ فإنَّ الله سبحانه

(١) سورة المائدة: ٣٧.

يقول: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾^(١).
وقد روي أن النبي ﷺ كان يقول: «اتَّقُوا اللَّهَ، وَصِلُوا الْأَرْحَامَ؛ فَإِنَّهُ
أَبْقَى لَكُمْ فِي الدُّنْيَا، وَخَيْرٌ لَكُمْ فِي الْآخِرَةِ».
وقال رجلٌ للحسن: يا أبا سعيد! أيُّ الجهادِ أفضلُ؟ قال: جهادُ
هَوَاكَ.

وكان يقول: مَنْ لَمْ يَمُتْ فُجَاءَةً، مَرَضَ فُجَاءَةً، فَاتَّقُوا اللَّهَ، واحذَرُوا
مُفَاجَأَةَ رَبِّكُمْ.

وكان يقول: نِعَمُ اللَّهِ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ يُؤَدَّى شُكْرُهَا، إِلَّا مَا أَعَانَ اللَّهُ تَعَالَى
عَلَيْهِ، وَذَنْبُ ابْنِ آدَمَ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ يَسْلَمَ مِنْهَا إِلَّا مَا عَفَا اللَّهُ عَنْهُ.
وكان يقول: سَمِعْتُ بَكْرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ يَقُولُ: رَحِمَ اللَّهُ امْرَأً كَانَ قَوِيًّا
فَأَعْمَلَ قُوَّتَهُ فِي طَاعَةِ اللَّهِ، أَوْ كَانَ ضَعِيفًا فَكَفَّ عَنْ مَعَاصِي اللَّهِ - عَزَّ
وَجَلَّ -.

وكان يقول: الكَذِبُ جِمَاعُ النُّفَاقِ.

وكان يقول: مَنْ كَذَبَ فَجَرَ، وَمَنْ فَجَرَ كَفَرَ، وَمَنْ كَفَرَ دَخَلَ النَّارَ.
ولقد روي أن عمرَ بنَ الخطَّابِ - رضيَ اللهُ عنه - كانَ يقولُ: إذا كَذَبَ
العبدُ كَذِبَةً، تَنَحَّى الْمَلِكُ عَنْهُ مَسِيرَةَ مِيلٍ مِنْ نَتْنٍ مَا يَجِيءُ مِنْهُ.
وكان يقول: ما أَعَدُّ كَرِيمًا إِذَا جَرَرْتُ إِلَى أَخِي نَفْعًا، أَوْ رَدَدْتُ عَنْهُ
ضَرًّا، وَأَصْلَحْتُ بَيْنَ اثْنَيْنِ.

وكان يقول: ابنَ آدَمَ! تُبَغِضُ النَّاسَ عَلَى ظَنِّكَ، وَتَنْسَى الْيَقِينَ مِنْ
نَفْسِكَ.

(١) سورة النساء: ١.

وكان يقول: إِنَّ الْأَغْلَالَ الَّتِي غُلِّ بِهَا أَهْلُ النَّارِ لَمْ تَحْصُلْ فِي أَعْنَاقِهِمْ لِأَنَّهُمْ أَعْجَزُوا الْخَزَنَةَ، وَإِنَّمَا هِيَ إِذَا طَلْنَا بِهِمُ اللَّهَبَ تُرْسِبُهُمْ فِي النَّارِ. ثُمَّ يَبْكِي حَتَّى يَغْلِبَ عَلَيْهِ، وَيَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنَّا نَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ النَّارِ، وَمِنْ الْعَمَلِ السَّيِّئِ الَّذِي يُوْدِّي إِلَيْهِ.

وكان يقول: رُوِيَ أَنَّ نَاسِكًا رَأَى نَاسِكًا فِي النَّوْمِ، فَقَالَ لَهُ: كَيْفَ وَجَدْتَ الْأَمْرَ؟ قَالَ: وَجَدْنَا مَا قَدَّمْنَا، وَخَسِرْنَا مَا خَلَّفْنَا، فَقَالَ الْحَسَنُ: الْآنَ فَاقْدُمُوا عَلَيَّ بِصِيرَةٍ.

وكان يقول: رُوِيَ أَنَّ قَوْمًا تَوَاصَفُوا الزُّهْدَ بِحَضْرَةِ الزُّهْرِيِّ^(١)، فَقَالَ: الزَّاهِدُ مَنْ لَمْ يَغْلِبِ الْحَرَامُ صَبْرَهُ، وَالْحَلَالُ شُكْرَهُ.

وكان أبو بكر بن عبد الله المزني^(٢) يقول: مَا ظَنُّكَ بِخَالِقِ الْكِرَامَةِ لِمَنْ يُرِيدُ كِرَامَتَهُ؟ وَمَا ظَنُّكَ بِخَالِقِ الْهَوَانِ لِمَنْ يُرِيدُ هَوَانَهُ، وَهُوَ عَلَيْهِمَا قَادِرٌ؟

وكان يقول: إِيَّاكُمْ وَالتَّسْوِيفَ وَالتَّرَجِّيَّ؛ فَإِنَّهُ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ.

ولقد حدثت عن أبي حازم أنه كان يقول: نَحْنُ لَا نُرِيدُ أَنْ نَمُوتَ حَتَّى نَتُوبَ، وَنَحْنُ لَا نُرِيدُ أَنْ نَتُوبَ حَتَّى نَمُوتَ، وَمَنْ لَقِيَ اللَّهَ مِنَّا مُجْرِمًا غَيْرَ تَائِبٍ، أَدْخَلَهُ النَّارَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ.

وكان يقول: رُوِيَ أَنَّ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ^(٣) قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ

(١) محمد بن مسلم بن عبيد الله بن شهاب الزهري، الإمام العالم الحافظ، السدني، تروى الشام، من التابعين، مات سنة أربع وعشرين ومئة.

(٢) الصواب: بكر بن عبد الله بن عمرو المزني. تقدم.

(٣) خادم رسول الله - ﷺ -، الإمام المفتي، المقرئ، المحدث، أبو حمزة الأنصاري، الخزرجي، آخر الصحابة موتاً، توفي في خلافة عبد الملك بن مروان، ونقل ابن الأثير: أن موته كان سنة ثلاث وثمانين.

يخطب يوم الجمعة إلى جذع يُسندُ ظهره إليه، فلما كثر الناس، عول له منبرٌ من طرفاء الغاية، له درجتان، فلما قام عليه، حنَّ الجذعُ إليه ﷺ. قال أنسٌ: سمعتُ الخشبةَ تحنُّ حنينَ الوالدةِ، وما زالت تحنُّ حتى نزلَ ﷺ فاحتضنها، فسكنتُ^(١).

فكان الحسنُ إذا حدَّثَ بهذا الحديثِ، بكى، ثم قال: عبادَ الله! الجذعُ يحنُّ إلى رسولِ الله ﷺ شوقاً إليه؛ لمكانه من الله - عزَّ وجلَّ - . وإيمُ الله! لأنتم أحقُّ أن تستاقوا إلى لِقائه ﷺ.

وكان يقول: روي أن بعضَ الصالحين رأى قوماً يتَمَنُّونَ، فقال: وأنا أتمنى معكم، فقالوا: ما تتمنى يرحمك الله؟ فقال: ليتنا لم نُخلَقْ، وليتنا إذ خُلِقنا لم نمتْ، وليتنا إذ متنا لم نُبعثْ، وليتنا إذ بُعثنا لم نحاسبْ، وليتنا إذ حوسبنا لم نُعذبْ، وليتنا إذ عُذبنا لم نُخلدْ.

نظمَ أبو العلاءِ المَعَرِّيُّ بعضَ هذا الكلامِ فقال:

فيا ليتنا عشنا حياةً بلا ردى مدي الدهرِ أو ميتنا مماتاً بلا نشرِ
وكان الحسنُ يقول: كان قبلكم ناسٌ أشرقُ قلوباً، وأنشقُ ثياباً، وأنتم اليومَ أرقُّ منهم ديناً، وأقسى قلوباً.

وكان يقول: اهتمامُ العبدِ بذنبه داعٍ إلى تركه، وندمُهُ عليه داعٍ لتوبته،

(١) صحيح، رواه الترمذِيُّ في المناقب، باب: (٦) رقم (٣٦٢٧) مختصراً، وقال: حسن صحيح. وابن ماجه في إقامة الصلاة والسنة فيها، باب: ما جاء في بدء شأن النبي ﷺ برقم (١٤١٤)، وقال البوصيري في «الزوائد»: إسناده صحيح، ورجاله ثقات. والدارمي (١٩/١)، وأحمد (٢٦٨/١) كلُّهم من طرق عن أنس بن مالك. وفي الباب، عن أبيه، وجابر، وابن عمر، وسهل بن سعد، وابن عباس، وأم سلمة، وأبي سعيد، والعمري.

ولا يزال العبدُ يَهْتَمُّ بالذنبِ حتى يكونَ له أنفعُ من بعضِ حسناته .
وكان يقولُ : مَنْ لَمْ يُدَاوِ نَفْسَهُ مِنْ سَقَمِ الآثَامِ أَيَّامَ حَيَاتِهِ ، فَمَا أَبْعَدَهُ مِنَ الشِّفَاءِ ، وَأَقْرَبَهُ مِنَ الشَّقَاءِ فِي دَارِ الآخِرَةِ بَعْدَ وَفَاتِهِ !
وكان يقولُ : الحَقُّ مُرٌّ لَا يَصْبِرُ عَلَيْهِ إِلَّا مَنْ عَرَفَ حُسْنَ العَاقِبَةِ ، وَمَنْ رَجَا الثَّوَابَ ، خَافَ العِقَابَ .

وكان يقولُ : لَقَدْ أَدْرَكْتُ أَقْوَاماً يُعْرَضُونَ عَلَى أَحَدِهِمُ الحَلَائِلُ فيقولُ : لَا حَاجَةَ لِي بِهِ ، نَخْشَى أَنْ يُفْسِدَنَا .
وكان يقولُ : لَوْ قُمْتَ اللَّيْلَ حَتَّى يَنْحَنِي ظَهْرُكَ ، وَصُمْتَ النَّهَارَ حَتَّى يَسْقَمَ جِسْمُكَ ، لَمْ يَنْفَعَكَ إِلَّا بَوْرَعٌ صَادِقٍ .
وكان يقولُ : مَا يَعْدِلُ بِرَّ الوَالِدَيْنِ شَيْءٌ مِنَ التَّطَوُّعِ ، لَا حَجَّ ، وَلَا جِهَادٌ .

وكان يقولُ : لَقَدْ رُوِيَ عَنِ عَمْرِ بْنِ الخَطَّابِ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ : أَكْثَرُوا مِنْ ذِكْرِ النَّارِ ؛ فَإِنَّ حَرَّهَا شَدِيدٌ ، وَقَعْرُهَا بَعِيدٌ ، وَمَقَامِعُهَا حَدِيدٌ .

رَوَى سَلَمَةُ بْنُ عَامِرٍ ، قَالَ : صَلَّيْنَا الجُمُعَةَ مَعَ الحَسَنِ ، فَلَمَّا انْصَرَفْنَا ، اكْتَنَفْنَا حَوْلَهُ ، فَبَكَى بُكَاءً شَدِيداً ، فَقُلْنَا : مَا بِأَلْكَ - رَحِمَكَ اللهُ - وَقَدْ بُشِّرْتَ بِالْجَنَّةِ فِي مَنْامِكَ ؟ فَازدادَ بُكَاؤَهُ ، قَالَ : وَكَيْفَ لَا أَبْكِي ، وَلَوْ دَخَلَ عَلَيْنَا مِنْ بَابِ هَذَا المَسْجِدِ أَحَدُ أَصْحَابِ رَسولِ اللهِ ﷺ لَمَّا عَرَفَ غَيْرَ قِبَلَتِنَا هَذِهِ ! ثُمَّ قَالَ : هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ ! أَهْلَكَ النَّاسَ الأَمَانِيُّ ، قَوْلُ بِلَا عَمَلٍ ، وَمَعْرِفَةُ بغيرِ صَبْرٍ ، وإيمانٌ بِلَا يَقِينٍ ، مَا لِي أرى رِجالاً وَلَا عُقولاً ، وَأَسْعُ حَسِيساً وَلَا أرى رِجالاً وَلَا أُنيساً ؟ ! دَخَلَ القَوْمُ - وَاللهِ - ثُمَّ خَرَجُوا ، وَعَرَفُوا ثُمَّ أَنْكَرُوا ، وَحَرَّمُوا ثُمَّ اسْتَحَلُّوا . إِنَّمَا دِينُ أَحَدِكُمْ لَعَنَةُ عَلَى

لِسَانِهِ، إِذَا سُئِلَ : أَمْؤْمِنٌ أَنْتَ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ؟ قَالَ : نَعَمْ ! كَذَبَ وَمَالِكِ يَوْمِ
الدِّينِ .

إِنَّ مِنْ أَخْلَاقِ الْمُؤْمِنِ قُوَّةً فِي دِينِهِ، وَحَزْمًا فِي لِينِهِ، وَإِيمَانًا فِي يَقِينِهِ،
وَعِلْمًا فِي حِلْمِهِ، وَحِلْمًا فِي عِلْمِهِ، وَكَيْسًا فِي رِفْقِهِ، وَتَجَمُّلاً فِي فَاقِهِ،
وَقَصْدًا فِي غِنَى، وَشَفَقَةً فِي نَفَقَةٍ، وَرَحْمَةً لِلْمَجْهُودِ، وَعَطَاءً لِلْحُقُوقِ،
وَإِنصَافًا فِي اسْتِقَامَةٍ، لَا يَحِيفُ عَلَى مَنْ يُبْغِضُ، وَلَا يَأْتُمُّ فِي مُسَاعَدَةِ مَنْ
يُحِبُّ، وَلَا يَهْمِزُ، وَلَا يَغْمِزُ، وَلَا يَلْمِزُ، وَلَا يَلْغُو، وَلَا يَلْهُو، وَلَا يَلْعَبُ،
وَلَا يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ، وَلَا يَتَّبِعُ مَا لَيْسَ لَهُ، وَلَا يَجْحَدُ الْحَقَّ الَّذِي عَلَيْهِ،
وَلَا يَتَجَاوَزُ فِي الْقَدْرِ، وَلَا يَشْمَتُ بِالْقَبِيحَةِ إِنْ حَلَّتْ بغيرِهِ، وَلَا يُسِرُّ
بِالمُصِيبَةِ إِذَا نَزَلَتْ بِسِوَاهُ .

المؤمنُ : فِي الصَّلَاةِ خَاشِعٌ، وَإِلَى الزَّكَاةِ مُسَارِعٌ، قَوْلُهُ شَفَاءٌ، وَصَبْرُهُ
تَقَى، وَسُكُوتُهُ فِكْرَةٌ، وَنَظَرُهُ عِبْرَةٌ، يُخَالِطُ الْعُلَمَاءَ لِيَعْلَمَ، وَيَسْكُتُ بَيْنَهُمْ
لِيَسْلَمَ، وَيَتَكَلَّمُ لِيَغْنَمَ، إِنْ أَحْسَنَ اسْتَبْشَرَ، وَإِنْ أَسَاءَ اسْتَغْفَرَ، وَإِنْ عُتِبَ
يَسْتَعْتِبُ، وَإِنْ سَفِهَ عَلَيْهِ حَلِمَ، وَإِنْ ظَلَمَ صَبَرَ، وَإِنْ جِيرَ عَلَيْهِ عَدَلُ،
لَا يَتَعَوَّدُ بِغَيْرِ اللَّهِ، وَلَا يَسْتَعِينُ إِلَّا بِاللَّهِ، وَقورٌ فِي المَالِ، شَكورٌ فِي
الْخَلَاءِ، قَانِعٌ بِالرِّزْقِ، حَامِدٌ عَلَى الرِّخَاءِ، صَابِرٌ عَلَى البَلَاءِ، لَا يَجْمَعُ بِهِ
القُنُوطُ، وَلَا يَغْلِبُهُ الشُّحُّ، إِنْ جَلَسَ مَعَ اللَّأَغِطِينَ كُتِبَ مِنَ الذَّاكِرِينَ، وَإِنْ
جَلَسَ مَعَ الذَّاكِرِينَ، كُتِبَ مِنَ المَسْتَهْتِرِينَ .

المؤمنُ : طَلَقُ البَشْرِ، حَسَنُ الخُلُقِ، كَرِيمٌ بَدُولٌ، رَاحِمٌ وَصُولٌ،
يُقْطَعُ فَيَصِلُ، وَيُؤَذَى فَيَحْتَمِلُ، وَيُهَانُ فَيُكْرِمُ، صَبورٌ عَلَى الأَذَى، مُحْتَمِلٌ
لأنواعِ البَلَاءِ، هَانَتْ عَلَيْهِ الدُّنْيَا فَلَمْ يَبْنِ فِيهَا بَيْتًا، وَلَا جَدَّدَ ثوبًا، حَسَنُ
الثَّقَةِ، لَا يَنْظُرُ بِاللَّهِ ظَنُّ السُّوءِ .

المؤمن: هَيِّنٌ، لَيِّنٌ، تَقِيٌّ، زَكِيٌّ، رَاضِيٌّ، لَا يُلْدَغُ مِنْ جُحْرِ مَرَّتَيْنِ، شَاحِبٌ لَوْنُهُ، شَاعِثٌ رَأْسُهُ، قَلِيلٌ طَمَعُهُ، كَيْسٌ فِي دِينِهِ، غَيْبِيٌّ فِي دُنْيَاهُ^(١).

المؤمن: كَثِيرُ الْوَقَارِ، مُكْرِمٌ لِلجَّارِ، مُطِيعٌ لِلجَبَّارِ، هَارِبٌ مِنْ عَذَابِ النَّارِ، نَفْسُهُ بِمَعْرِفَةِ اللَّهِ شَاهِدَةٌ، وَجَوَارِحُهُ لِلَّهِ ذَاكِرَةٌ، وَيَدُهُ بِالْمَعْرُوفِ مَبْسُوطَةٌ، وَهُوَ فِي مُحَاسِبَةِ نَفْسِهِ فِي تَعَبٍ، وَالنَّاسُ مِنْهُ فِي رَاحَةٍ.

المؤمن: صَادِقٌ إِذَا وَعَدَ، قَرِيبٌ الرِّضَا، بَعِيدُ الغَضَبِ، يَعْلَمُ إِذَا عُلِمَ، وَيَفْهَمُ إِذَا فَهِمَ، مَنْ صَاحِبُهُ سَلِيمٌ، وَمَنْ خَالَطَهُ غَنِمَ، كَامِلُ الْعَقْلِ، كَثِيرُ الْعَمَلِ، قَلِيلُ الْأَمَلِ، حَسَنُ الْخُلُقِ، كَتُومُ الغَيْظِ. ثُمَّ بَكَى فَأَبْكَانَا.

وقال: هَكَذَا كَانَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الْأَوَّلَ فَالْأَوَّلَ، حَتَّى لَحِقُوا بِاللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ -، وَهَكَذَا كَانَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ سَلْفِكُمُ الصَّالِحِ، وَإِنَّمَا غَيَّرَ بِكُمْ لَمَّا غَيَّرْتُمْ، ثُمَّ تَلَا: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾^(٢).

ثُمَّ قَالَ الْحَسَنُ: اللَّهُمَّ رَبَّنَا صَلِّ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِ الطَّاهِرِينَ، وَامْنُنْ عَلَيْنَا بِمَا مَنَنْتَ بِهِ عَلَى عِبَادِكَ الْمُخْلِصِينَ، وَأَوْلِيَانِكَ الْمُتَّقِينَ، إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وَعَلَى كُلِّ خَيْرٍ مُعِينٌ، وَحَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ.

(١) لَعَلُّهُ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - إِشَارَةٌ إِلَى عَدَمِ التَّعَلُّقِ بِالدُّنْيَا، وَإِلَّا فَإِنَّهُ مِمَّا يَتَرْتَبُ عَلَى الْمُسْلِمِ أَنْ يَكُونَ عَلَى عِلْمٍ بِأُمُورِ دُنْيَاهُ، غَيْرَ غَيْبِيٍّ بِهَا، حَتَّى يَتَعَامَلَ مَعَهَا عَلَى عِلْمٍ وَبَصِيرَةٍ، وَيَعْرِفُ صَحِيحَهَا مِنْ سَقِيمِهَا.

(٢) سُورَةُ الرَّعْدِ: ١١.

وكان الفراغ من هذا الكتاب، بعون الله السالك المعين الوهاب، تنميماً
وخطاً وتصميماً وضبطاً، على يد العبد الضعيف الفقير، الراجي رحمة ربه
الغني القدير كمال الدين، حسين بن شمس الدين، محمد الكاتب، ابن
غيث الدين علي الكرمانلي. أفاض الله عليهم من شأيب رضوانه سجالاً،
وفسح لهم في حضرات النعيم ما اتسع مجالاً، وذلك في يوم الاثنين
الواضح البيان، ثاني عشر شهر الله المعظم رمضان، عين شهر سنة
ثمانين وتسع مئة من الهجرة الشريفة النبوية، أحسن الله تعالى ختامها،
وقدر في عافية تامها، وهو سبحانه المانح المنيل، وهو حسبنا ونعم
الوكيل، والحمد لله حق حمده، وصلى الله على سيدنا محمد رسوله
وعبده، وعلى آله وصحبه من بعده، والخير يكون، والخطب يهون.

* * *

الفهرس

الموضوع	الصفحة
* المقدمة	٥
* عملي في الكتاب	٨
* ترجمة المصنف	١٠
آداب الحسن البصري	
* مقدمة المصنف	٢١
* الفصل الأول:	
في ذكر منشئه، وصفة أحواله وأفعاله	٢٣
* الفصل الثاني:	
فيما أورده من الآداب ومكارم الأخلاق	٣٦
* الفصل الثالث:	
فيما أورد من الحكم والمواعظ مختصراً على جهة البلاغة والإيجاز	٥٣
* الفصل الرابع:	
في ذم الدنيا ونهيه عن التعلق بها	٦٥
* ومن هذا الفصل:	
ما روي عنه - رضي الله عنه - في قصر الأمل	٧٨

- * الفصل الخامس :
فيما أورده على جهة الاستغفار والدعاء والنهي عن التصنع والرياء . . . ٨٣
* ومن هذا الفصل :
ما رُوي عنه - رحمه الله - في نهيه عن التصنع وذم الرياء ٨٨
* الفصل السادس :
فيما رُوي عنه عند تلاوة القرآن من الحكم والمواعظ ٩٤
* الفصل السابع :
في مكاتبة الخلفاء ومعاملاته مع الأمراء وولاية الأمور ١٠٤
* ومن هذا الفصل :
ما رُوي عن الخروج على الأمراء ١١٦
* الفصل الثامن :
فيما رُوي عنه من المواعظ والحكم في سائر الأمور ١١٩
الفهرس ١٣٩

* * *

الكافي

مِنْ شُرُوحِ الْأَرْبَعِينَ النَّوَوِيَّةِ

إعداد
ماهر الهندي

دار الصلوة
للطباعة والنشر والتوزيع

